الكفكائي

الكفكائي

قصص

علي سيف الرواحي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1382-4

جميع الحقوق محفوظة

توزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

معرة الفكر

كيف تشكّلت قناعاتي وأفكاري بهذه الكيفية؟ تلك الدروب التي سلكتها والقفار التي قطعتها والمعارك التي ناضلت وحاربت فيها الباطل والشر، هل يا ترى استفدت منها شيئاً؟ وهل خرجت من كل تلك التجارب ظافراً ومنتصراً؟ وهل قراراتي جميعها صائبة؟

اخترت عزلة في عزلة لم أخترها. يصادفني نفاق البشر في طريق فأسلك طريقاً آخر، يتناهى إليَّ نعيق الجاهلين وصراخ الموهومين فأصمّ عن ذلك أذني. أرى، وأنا الأعمى، التفاهة تعشعش في حياة الناس، والكسل والتواكل والتوكل يطغون على أوقاتهم تحت شعار غيبيّ زائف، فأُعمي عن ذلك عيناً. فلتضحك أيها القدر من سخرية نفسك. ألا يدرك الإنسان كم هو وضيع وحقير حتى يتكبّر على العلم ولا يسعى إلى إعمال عقله. فليس الإنسان إلا ذرّة صغيرة تافهة في خضمّ هذا الكون الفسيح التي تسبح فيه الملايين والملايين من الأجرام والنجوم. وهل يكفر المرء إن أراد أن يفسّر الطبيعة وظواهرها بمنطق يقبله العقل بعيداً عن التأويلات الدينية الغير معقولة. هل هي المبادئ الدينية وقول السابقين ما يجعلهم يتعصّبون لرأيهم ويكفّرون غيرهم؟ أم هي العصبيّة القبلية وصراع المذاهب ما غيّبت عقولهم وجعلتهم لا يرون إلى الحقّ في كلام الغير بل يرون من قائله؟ كيف السبيل إلى إيجاد منافذ يدخل منها العلم والمنطق؟ كيف يتنكّر الإنسان لإنسانيته

ويتمرّغ في جهله في مستوى أدنى من الحيوان؟

إني أسمع قرعاً على الباب. لعله الصّبي آتٍ إليّ بالغداء. عصاي رفيقة دربي، تمهّلي بي. إني أبارك الشجرة التي نُحتّي منها. كيف وأنت الجماد الذي لا يشعر ولا يعقل صرت لي أنيسة ومعينة في حين تخلى عنّي معظم البشر وتنكّروا لي. جلبها لي ذاك الشاب الذي لازمني فترة من الزمن حتى وافته المنية. عقل لامع ومتفتّح كان له مستقبل باهر كمفكّر وباحث في العلم ولكان له شأن بين الناس. وكان يصرّ على مناداتي برهين المحبسين ويذيع بين أقرانه أنني معرّي عصري. وأنا بعيد كل البعد أن أكون مفكراً أصيلاً كالمعري. كل ما فعلته هو أنني أعلنت تمرّدي على الفكر السائد وأردت أن أكتشف طريقي بنفسي. طردوني من الجامعة التي كنت أدروس فيها بعد أن صدر كتابي الأخير والأكثر جرأة. ولست نادماً على أي شيء.

«أهلاً يا إبني كيف حالك؟» «مرحباً بأستاذي العزيز. لقد أحضرت لك طعام الغداء. سأضعه على الطاولة وبجانبه الملاعق». «وبالمناسبة أمي تبعث سلامها وتقول أنك ما عدت تأكل مثل السابق، وهي قلقة من أن طبخها لم يعد يعجبك» أخذني من يدي وأقعدني على الكنبة وجلس هو قبالي. شممت رائحة ليمون منعشة ربما هي كولونيا ما بعد الحلاقة كان يضعها. كان شاباً فارعاً يفوقني طولاً حين يقف أمامي ويبدو لي أنه ذو تكوين جسماني ضخم كذلك. «أعذرني أستاذ سأسرق من وقتك القليل منه، أودّ محادثتك في أمر ما.. كما تعلّم أني على وشك الإلتحاق بالجامعة وأنا في حيرة في أي تخصّص أتّخذه للدراسة..» أرخيت ظهري إلى الأريكة وقلت «لا بأس.. أخبرني ما هي خياراتك

وما الذي تطمح للوصول إليه». صمته أخبرني أكثر من حديثه. هو ربما قـد أتخـذ قـراره وإنما كان يريد أن يطمئن إليه ويريد تأكيداً من شـخص ينظـر إليـه باقتـدار. هـذه هـي مرحلة الشـباب، مرحلة الأسـئلة المبكرة والتكويـن الفكـري العميـق. قـد تتغير أفكارنا مع تقدّمنـا في العمر وقد نبـدّل قناعاتنـا ونظرتنا للأمـور، لكن يظل الأس الفكري الأول باق كما هـو. وأعنـي بذلـك الحقيقة الوحيدة التي تلتقطها الروح المعنوية. يلوح لي مثال من واقع تجربتي الحياتية. منذ طفولتي وأنا أحب العزلة وكنت أرى في مرحلة لاحقة أن الانصهار الكامل في المجتمع والجماعة يفقد المرء فردانيته وتميّزه الشخصي. ورغم أني ابتعدت كثيراً عن الغيبي في اتجاه الواقعي والعلمي، إلا أن قاعدة فكري الرئيسية ترتكز على أهمية المسـاحة الفردية للأشـخاص وأهمية وجود حرية فكرية مطلقة للإبداع بعيـداً عـن التدخّـل المؤسسـي والمجتمعـي المدمّر. وضـرورة احترام الرغبة في التميز والاختلاف.

«لا أخفيك أمراً أسـتاذي العزيز، لقد تركت كتاباتك وأفكارك أثراً كبيراً عليّ جعلتني أرغب في أن أكون كاتباً ومفكراً مثلك. لقد بدأ الأمر لديّ عندما قرأت أول مجلة مصورة للأطفال في سن مبكرة. وأنا ممتن كثيراً لذلك، إذ جعلتني تلك التجربة أعشق القراءة وأواضب عليها. ومع اختلاف المواضيع التي قرأت فيها تسلّلت إليَّ الأسئلة الوجودية الكبرى وأحببت بذلك الفلسفة». شعرت بأن لديه المزيد لذا لم أقل شيئاً. «تزامن حبّي للفلسفة مع حبي للأدب والرواية والقصص منه تحديداً، فكلاهما يروقـان لـي. أتمنـى أن أحصل على الخبـرة والمعرفة اللتي تمكّناني من إبراز أهمية الفلسـفة في وقتنا الراهن». تنفّسـت بصوت مسـموع وقلت

«إبني العزيز، أقدر لك ثقتك في أخذ مشورتي. مما يؤسف له أن الدراسة في الجامعات والمعاهد أصبحت لدينا من أجل الحصول على الوظيفة فـي الغالـب الأعـم. وذلك ليس عيباً في نفسـه، لكنه أفقد هذه الصروح العلمية والمعرفية جزءاً كبيراً من دورها الأساسي وهو البحث في العلوم والتجديد فيها. ودراسة أي علم من العلوم يجب أن تكون وسيلة لغاية أسمى وأنبل وتحقيق أكبر منفعة للنفس وللغير. وفي تحصيل المعارف متعة ولذّة لا تضاهيها إلاَّ لذّة إنتاج معرفة جديدة وتطوير علم ما، فمتعة الصيـد تكمـن فـي لحظـة النصر والتفوق على الفريسـة وليس في التهام لحمها. ولذلك أرى أن كل العلوم نافعة وكل المعارف جديرة بدراستها. وإن كان لديك هدف معين تسـعى للوصول إليه فاختر الطريق الأقرب إلى قلبك والأميل إلى عقلك واعلم بأن الجامعة أو المعهد ليس المكان والمصدر الوحيد الذي تُستقى منه العلوم». صمته أخبرني أنه يودّ قول المزيـد. لـم أسـتعجله وتركته لكي تختمر الأسـئلة فـي عقله كي تخرج بأفضل صورة. «ق.. أستاذي العزيز، إن قلبي يميل كل الميل إلى دراسة الفلسـفة فهـي تنظـر إلـى كل العلوم بعين الفاحص والناقد وتسـتخلص جوهرها وتغوص إلى أعماق العقل لتخرج منه بالأسئلة الأصعب وتدفع النفـس إلـى مراجعـة قناعاتها، والفلسـفة تضع كل شـيء تحت المجهر حتـى اليقينيـات ومـا يعتقـد أنها الحقائق المطلقة ولكن.. لكني أخشـى أن أعود من رحلتي في عالم الفلسفة أكثر بلبلة وحيرة وغير عارف بما أؤمـن بـه وأبقى بلا قاعدة فكرية أسـتند عليهـا..» نظرت في قلب عقلي وأنا في لجة عتمتي الأبدية. لا أظن أن هذا الشـاب يبحث عن الحقيقة هنا، هو أذكى من هذا بكثير. هو يريد منارة يهتدي بها في الطريق الذي

اختـاره هـو. «يبـدو لـي أنك تعـرف ما تريده وهو مؤشّـر جيد على أنك ستصل إلى مبتغاك» وضعت في يده مفتاح. «هذا مفتاح إضافي لشقّتي، بإمكانك أن تأتي إلى هنا في أي وقت، حتى في غيابي أو نومي، وتأخذ أي كتـاب ترغـب فيـه. الغرفـة الأكبـر هنا تحوي مكتبـة فيها العديد من الكتب. كان أحد تلامذتي يتفضّل ويقرأ عليّ بعضها، وربّما سأسـتعين بك لكي تقرأ الكتب الجديدة التي تصلني». ابتسامة رضاه أتتني كنسمة باردة غمرت وجهي.

أتذكّر «رهين المحبسين» الحقيقي وما عاناه في سبيل فكره وآرائه. كيـف، وهـو الضرير، اسـتطاع تحـدّي جميع مخالفيه والتفـوّق عليهم. رفض إغراء المال والجاه لكي لا يرتبط بأي سلطان ولكي لا يسلّم قياد فكره لأيّ أحد. ولم يستسلم أيضاً للعادات البالية والوثنية السائدة التي أُلبِست ثوباً جديداً. وكأني أراه يقول لي «إن عادات الناس صنم، والناس تعبد هذا الصنم. نحن في الأصل صفحة بيضاء خالية من أي معتقدات أو قناعات. وما يفرض علينا يتحول مع مرور الوقت وغلبة الكثرة إلى مقدّس. الكون رغم أنه تكوّن من ذرة واحدة، إلا أنه في توسّع وانقسام. الاختـلاف يولّـد الكثيـر مـن الاختلاف. ولون الشـمس الأصفر الواحد يحـوي الكثيـر مـن الألوان. فالواحد يعني الكثرة. والذين يعيشـون على النقل ويهملون العقل سيطويهم الزمان وسيعيشون على هامش التاريخ. البكاء على الأطلال قد يجلب السلوان لكنه يعمي البصيرة. يهدأ الألم قليلاً لكن المرض باق. العيش على الخدعة الحقيقية. وأكثر ما يسـبّب لي الحزن هو التنازلات التي يقدمها أصحاب الفكر الحر لكي لا يسخط عليهم القطيع والمؤسسة الدينية».

كولاب

اصطبغت تلك الليلة بأشعة القمر المكتمل الفضية، وكان الكوكب الميت قريباً جداً من الأرض كطفل صغير يتوق إلى حضن أمّه. توهّجت الأرض والحجارة والأشجار بسكون رمادي. أخذته قدماه بعيداً بين الأحراش والنباتات الصحراوية وهو يفكّر في أمور حياته الشائكة. فشل في الدراسة، فشل في العمل. فشل في الحب. كل شيء كان مشرقاً بادئ الأمر ثم ما لبث أن خفت النور رويداً رويداً حتى حلّت ظلمة طاغية، فَضَلَّ طريقه وتعثَّر وسقط في هاوية لها أكثر من قعر. كل قعر يصطدم به يدمي قلبه ويفقد معه جزءاً من روحه حتى أصبح هو تجسيداً حيّاً للهاوية. يحدّق في وجهه المنعكس على المرآة الشديدة الاتساخ. يرى شابّاً حاملاً بشرى تخرّجه من الجامعة مهندساً بتفوّق كبير. مشروعه الأول كان تصميم أكبر جامعة في البلاد مما أشعره بالفخر والاعتزاز لأن اسمه سيظل مرتبطاً بصرح العلم والمعرفة ذاك. يرجع إلى بيته الذي يملكه ليستقبله ابنه وفي يده ورقة رسم عليها صورته وصورة زوجته. وأين أنت يا حبيبي؟ يسأل ابنه. أنا في المدرسة يا بابا، أنسيت؟ يجيب الإبن ببراءة شفافة. يأتيه صوت زوجته العذب فتغرق روحه في محيط لا نهائي من الحب. جرح نفسه أثناء حلاقته لذقنه. مسح نقطة الدم بقليل من الماء. نظر إلى نفسه في المرآة تارةً أخرى. جرف البخار المتصاعد من حوض الاغتسال أحلام يقظته. خرج المزيد

مـن الـدم مكونـاً خطًّـا أحمراً امتد إلى عنقه. تلبّـد قلبه بحزن كثيف لأن الذي كان يحدّق به من المرآة لم يكن إلا بائعاً في محل أحذية.

تـرى أيـن أنـا؟ هل ضللـت الطريق؟ التفت خلفـه باحثاً عن ضوء المخيّـم فلـم يعثـر عليه. المكان من حوله كان مضيئاً نوعاً ما ومع ذلك شعر بحلكة تزحف نحوه كأفعى سامّة. في اللحظة التي قرّر فيها أن يدور على عاقبيه ليرجع من حيث أتى غطّى بعض السحب القمر فأظلم القفر كلّيـاً. مشـى ببـطء ونظـره مثبّت نحو الأرض محاذراً أن يتعثّر أو يسـقط في حفرة ما. ارتداؤه لصندل خفيف عوضاً عن حذاء يغطّي كامل القدم زاده قلقاً. لا يزال يتذكّر الألم الذي سبّبته شوكة شجرة سدر في صغره حيث شـكّته وكادت أن تشـطر خنصر قدمه الأيمن إلى نصفين. مشـى كثيـراً فـي الاتجـاه الـذي ظن أنه سـيقوده إلى المخيم حيـث أصدقاؤه. كانت الأوقات التي يقضيها مع هذه الشـلّة من الأصحاب هي الأسـعد عنده. درسـوا كلّهم في المعهد نفسـه حيث التحقوا بدورات قصيرة في التسويق والمحاسبة ضمن برنامج حكومي مخصّص للذين لم تسعفهم نتائجهم في الالتحاق بكليات أو جامعات أخرى. تصادف أن أهواءهم متوافقة، جمعهم حب المغامرة والسـفر. ظروفهم متشـابهة، عزاب من أسر متواضعة. سكنوا في شقّة واحدة أثناء الدراسة وما زالوا إلى الآن. أعـادوا اكتشـاف المدينـة وخباياها كما لـم يفعل أحد من قبل، ثلاثة هم وهو رابعهم.

لـم يشـعر بالألـم إلا بعـد أن مشـى عدة خطـوات، لقد اصطدمت جـوزة رجلـه اليمنـى بحجـر ما. أحس بحرقة مكان الإصابة وخشـي أن تكـون قـد نزفـت. تلمّـس طريقه نحـو صخرة كبيرة وجلـس عليها لكي

يعايـن جرحـه. نعـم هناك بعض الدم، لكنه قليل. جال بنظره في الحلكة من حوله. صمت وسكون مهيبان عمّا البر المقفر ولا أثر للمكان الذي نصبـوا فيـه خيامهـم. ربمـا كانـوا قد أطفـأوا النار؟ لماذا لـم ينتظروه أو يبحثـوا عنـه؟ بحـث فـي جيوبه وهو يلعن حظه لأنه نسـي إحضار هاتفه المحمول. كانوا قد أمضوا الليلة التي سـبقت مجيئهم إلى البر في بيت صديقهـم بـدر الـذي يقطن هذا المنطقة مع عائلته بعد أن اجتازوا ثلاث سـاعات مـن القيـادة قادمين من العاصمة. تشـارك مـع أصدقائه الاثنين غرفـة مجلـس الرجـال لمبيـت تلك الليلة. انتحى ركنـاً قصيّاً من الغرفة قريبـاً مـن النافـذة واتخـذه مرقـداً لـه. كان يأتيه ضوء خافـت من خارج النافذة، لم يكن ينير إلاّ مساحة صغيرة. لم يستطع النوم لساعة متأخرة من الليل بينما غطّ رفيقاه في نوم عميق. شـدّ انتباهه كتاب وضع على طاولة صغيرة بين الكراسـي. لم يسـبق له أن قرأ كتاباً كاملاً في حياته، حتـى كتبـه الدراسـية بالكاد كان يقرأها. قـام وتناول الكتاب ثم عاد إلى فراشه. أخذ يقلّبه بلا رغبة حقيقية في القراءة. الكتاب كان يتحدّث عن الأديـان. أعجبتـه الصـور التـي تناثـرت بكثرة بين دفتـي الكتاب. توقّف عند صورة لدين حديث الإنشاء في شمال أميركا، أخذ يقرأ، بشكل لا شعوري، المقال المصاحب للصورة حتى داهمه الكرى.

مـن غيـر مقدّمـات وبلا سـبب ظاهر أخـذ في البكاء بمـرارة وهو جالس على صخرته تلك. ما لبث أن تحوّل بكاؤه إلى عويل مصحوب بدمـوع غزيـرة. فـي لحظـة واحـدة تحوّل إلـى كائن ليلـي يعوي كذئب لكنـه لـم يـدر الغرض من عويله ذاك. من بيـن النجوم المضيئة المبعثرة فـي أرجـاء الكـون بـدت لـه نجمة أكثـر لمعاناً من سـواها وكانت آخذة

فـي التوهّـج أكثـر وأكثـر كأنها كانت تهـوي نحو الأرض. انتابه شـعور غريب بينما كان يغطّي السـماء نور تلك النجمة كأنها شـمس الظهيرة. سـرت همهمة كهمس يأتيه من المجهول وأحسّ بثقل في جسـده حين حاول تحريكه. سقط ضوء قوي أعشى عينيه بحيث لم يستطع إبقائهما مفتوحتيـن. غمـره البيـاض من كل جانب كأنه سـقط في كهف جليدي، أرضه وسقفه وجدرانه كلّها ثلج في ثلج. أحسّ بأن قواه تنسل منه وأن جسمه يزداد خفّة. قبل أن يدخل في دوامّة الإغماء، تقيأ بقوة مفرغاً كل ما في جوفه حتى آخر رمق.

سميث 1

لم يكن يشعر بثقل جسده، كأنه كان مخدرًاً من أسفل قدميه حتى قمّة رأسه. لم يستطع الحراك البتة. العضو الوحيد الذي استطاع تحريكه هو عينيه. هل هو في المستشفى؟ نظره كان طبيعياً إلى حدٍّ ما لكنه كان يحدّق في شاشة أعلى السقف تعرض خطوط مموّجة وغير ثابتة. حاول جاهداً تحريك رأسه أو يديه، لكن بلا فائدة. بقي على هذه الحالة حتى شعر بوجود شخص معه في الغرفة.

«لا أستطيع فهم ما تقوله سيدي» أحسّ بسريان تيار كهربائي بسيط في دماغه.

«أهلا بك في كوكبنا»

«كوكبكم...؟ هل هذا اسم المستشفى أو ما شابه؟»

«استـرخ.. لقـد كانـت رحلتك طويلة. سـوف أطـرح عليك بعض الأسئلة».

«ليس قبل أن تجيب عن أسئلتي.. أين أنا؟» لا يدري هل كان ينطق بالأسئلة بلسانه أم يفكّر بها فقط.

«أنت في كولاب، كوكب كولاب».

«ما هذا؟ هل هذه مزحة ما؟».

لم يجب الصوت الآخر لبضع ثوان. كولاب، يبدو الاسم مألوفاً لديه.

«لقد كنا نراقب كوكبكم والحياة عليه لفترة طويلة من الزمن. وارتأينا أنه قد حان الوقت لنقوم باتصال مباشر لنقل رسالتنا لأهل الأرض».

أراد أن يتبيّن شكل محدّثه، لكنه لم يستطع أن يحدّد ملامح معيّنة. كل ما استطاع رؤيته هو بعض الأشكال تتحرك بسرعة من حوله.

«أرجوك يا سيدي، كائن من تكون، أنا لست أهلاً بحمل رسائل أو أن أكون سفيراً إلى البشرية. ما أنا إلاّ شاب بسيط بلا ثروة أو سلطة أو منصب. لعلّك أخطأت بالشخص.. أرجوك دعني أذهب..».

«نحن لا نخطئ أبداً. لقد اختارك «العقل الأسمى» بنفسه وهو الذي سيمهّد لك الطريق لأداء مهمتك».

بعد ذلك حلّ صمت.

«نريد أن نعرف ما هي علاقتك بدينك؟».

«علاقتي بديني.. ماذا تقصد؟ علاقة جيدة على ما أعتقد.. أعني أنني أؤدّي ما يطلب منّي بلا مناقشة أو اعتراض.. لا أدري ماذا أقول.. لماذا تريد أن تعرف ذلك؟».

«إذا اكتشفت أن دينك ليس هو الدين الصحيح، هل أنت مستعد للتخلّي عنه؟».

«ماذا.. أتخلى عن ديني؟».

«سوف نعرض لك فيلم قصير يشرح لك الرسالة التي عليك حملها للبشرية».

سميث 2

«هل أنت مرتاح سيد آدم؟».

صوت مغاير أتاه، أعمق نغمة، كأنه قادم من السحيق وبدا صاحبه كبير السن.

«أنا أعرف كل هذا.. لقد رأيته من قبل.. ولكن لا أعرف.. لا أدري..».

«استرخ، لا تجهد نفسك. أنا أعرف كل أسئلتك، وسيتم بشيء من التفصيل شرح أهم ما جاء في عرض الرسالة».

كانت الغرفة من حوله لا تزال غارقة في بياضها الصامت والأشكال غير واضحة المعالم. حتى الفيلم الذي رآه كأنما أغمض عينيه وشاهده كحلم.

«من متابعاتنا اتضح أن المنطقة التي تعيش فيها هي موطن لكثير من الأديان الناجحة والمجتمعات التي تصغي كثيراً للخرافات والقصص الغير معقولة وذلك من شأنه أن يمهّد لأداء مهمتك..».

هل أكون نبياً في زمن يكره الأنبياء؟ تساءل في نفسه.

«لا أخفي عليك، سيكون الأمر في غاية الصعوبة في بدايته، فالناس

تكـره التغييـر مهمـا كان نبيـلاً. لذلـك من المهم أن تؤمـن بما تدعو إليه باقتنـاع وبالحجـة المناسـبة. مـن أجـل ذلك أتينا بك إلـى هنا لكي ترى بنفسك وتقتنع وتؤمن..».

تنامت في نفسـه رغبة ملحّة للسـؤال عن شـيء، ولكنه كبحها كي لا يقع في الخطأ.

«مـع الأسـف ذلـك غيـر ممكـن لأن «العقـل الأسـمى» لا يمتلك وجـوداً مادّيـاً وحتـى نحن لا نسـتطيع رؤيتـه. وأوامره تأتينـا عن طريق الرؤى والأحلام، وبهذه الطريقة أيضاً سيتم الاتصال بك».

لم يقل شيئاً.

«سنكون مزروعين في عقلك وأفكارك، ونحن معك في كل ثانية وفـي كل خطـوة تخطوهـا.. فكرنا المنهجي كما رأيت يتكوّن من سـبع قيـم معرفيّـة. كل قيمـة تتفـرّع منهـا تعاليم وأحكام، منهـا الأوامر ومنها الإرشادات العامة. وهذه التفاصيل ستأتيك تباعاً..».

«ماذا لو...».

«ماذا لو فشلت..».

«ما قصدته هو.. ماذا لو لم يصدّقني أحد.. ماذا لو حاربني الناس والمجتمـع والحكومـة.. مـاذا لـو ظُنّ بـي الجنون ورمونـي في مصحة عقلية؟».

«هـذا وارد. لكـن مهمّتـك لا تقتضـي علـى أية حـال أن يكون لك أتباع. الحقيقة أتباعها قلة، لأنها تعتمد على العقل. أما الوهم فأتباعه كثر لأنه يعتمد على الأحاسـيس. يكفي أن يسـمعوا ويتأثروا وتتغير حياتهم. ديننا ليس فيه طقوس أو كهانة. لا معابد أو كتب مقدّسة والتعاليم التي

ستحملها هي كمنارات يستعان بها. لا يوجد جلوس في مكان واحد والتلفّظ بأقوال أو إتيان أعمال يعتقد أنها تجلب السلام الداخلي. يجب على الناس السعي وإعمال عقولهم والسفر نحو الحقيقة حتى يصلوا إلى وجهتهم التي يقصدونها».

«لكن ماذا لو زودتموني ب...».

«معجزات؟».

«نعم، أو شيئاً من هذا القبيل..».

«كلا. إن ذلك يتنافى مع جوهر الرسالة. العقل هو أسمى حقيقة في الطبيعة والزمن. والمعجزات والخوارق تنافي العقل والطبيعة. وذلك ينطبق على الحقائق المطلقة، لذا منهجنا قد طوّعناه لكي يتأقلم مع كل زمان ومكان كما سترى لاحقاً».

أحسّ فجأة ومن غير سابق إنذار أن الغرفة تدور من حوله بسرعة شديدة حتى أشعره ذلك بالغثيان. كل ذلك والبياض الأبدي باق لم يغادر. والحيرة في داخله تتعاظم، لكن مع ذلك انتابه شعور جديد. كأن الغشاء الذي يغطي عينيه قد انزاح. شعر باطمئنان هادىء وأحسّ بأن له هدف عليه أن يسعى نحوه. بمعنى آخر، وجد معنى لحياته. لكن لماذا كان مثبّتاً في مكانه كأنه مجنون يخشى منه أن يؤذي أحدهم أو نفسه؟

سميث 3

«سيد آدم.. نعتذر على إزعاجك بهذه الطريقة..».

المكان من حوله الغارق في سكون أبدي أشعره بأن الوقت لا يمر. سكون في سكون، وأحسّ أن هذا الوضع قد يستمر إلى ما لانهاية.

لزم الصمت.

«لكنه ضروري لنا.. نحن عائدون إلى الأرض..».

صوت آخر، الآن أيضاً، رقيق كأنه الهمس. صوت أنثوي رغم أنه لا سبيل لمعرفة جنس محدّثه. نعومته لم تمنعه من أن يكون ذا وقع مقنع ومؤثر وسلطوي.

أراد أن يسأل لماذا هم مهتمون بكوكب الأرض وأهله. لماذا أخذوا على عاتقهم «هداية البشرية». ماذا الذي سيضيفه أي دين جديد بعد أن تطورت العلوم والمعارف. وهل سيكون فيه الخلاص؟

«إنها إرادة (العقل الأسمى)» أتاه الجواب على سؤاله الباطني.

بعد صمت طويل آخر قال الصوت وبدا أنه اقترب أكثر «سأتناقش معك التعاليم السبع التي رأيت لمحة عنها سابقاً..».

أحسّ أن «سابقاً» هذه تعني زمناً طويلاً، سنوات ربما. لم يقل شيئاً.

«أولاً: «الخالق» هو مبدأ ومنشأ فكرة الكون وهو مصمّم زواياه وكل ما فيه. وقد طبعت العقول البشرية بطابعه، فلها نصيب من قدرته على الخلق والإبداع، ومنه تأتيهم تلك الإلهامات».

«وما الهدف من ذلك كله؟ أقصد ما الهدف من خلق الكون والأرض والبشر والتعاسة؟ ما هي الغاية النهائية؟» وجد نفسه يسأل بصوت عال.

«لقد تُرك ذلك لكم لتكتشفوه وتعرفوه. أما غايته فهي غير معلومة. أما بالنسبة للإنسان فهو متأثر بالطبيعة، والطبيعة ليست عاقلة في ذاتها وإن كانت ذات إرادة، لذلك ليس لها غرض أو غاية. لكن الإنسان بإمكانه إنشاء غايته وهدفه من الحياة بنفسه. قد يكون المال والجاه لدى

أحدهم، وقد تكون البطولة أو المجد الشخصي أو الخلود في التاريخ ما يسعى إليه فرد آخر، وكل ذلك لا عيب فيه، لكن يكمن الشقاء في النتيجة. فليس هنالك شيء فيه شر من ذاته أو في جوهره، وإنما ينتج الشر عن طريق الحركة نحو الشر والقيام بالأعمال المخالفة للعقل».

صمت.

«ثانياً: إن العقاب أو العذاب الجسدي الأخروي لارتكاب الجرائم والأعمال المنافية للأخلاق المتعارف عليها في زمن ما يحرّم مرتكبها من امتلاك الحقيقة العقلية المطلقة والتوحّد مع «العقل الأسمى». وما يحقّقه المرء في حياته من أعمال عظيمة سيتمتّع بها عقلياً بعد موته».

«ولكن ألا يدفع ذلك الأشرار والمجرمين وأصحاب النفوس الشريرة إلى ارتكاب المزيد من الفظائع والجرائم، متى ما علموا أنه لا يوجد عقاب بعد حياتهم؟ أين العدل إن استطاعوا الإفلات من العقوبة الدنيوية ومن سيقتص منهم حقوق ضحاياهم؟».

«هذا يقودني للقيمة الثالثة والتي تنصّ أنه يجب أتباع القوانين التي يضعها الناس بالإجماع وبعد الاهتداء بالعقل، وهي كفيلة بأن تحفظ الحقوق وتعاقب المعتدي. وهذه القوانين والشرائع ليست ثابتة وإنما تتغير مع مرور الزمن لتناسب العصر؛ ولأن المستوى الفكري للإنسان يتغيّر ويتطوّر كذلك هي القوانين».

لم يجد ما يقوله فتابع الصوت «رابعاً: العقل مقدّم على الجسد. لكن ذلك لا يعني إهمال الجسد. يجب الاعتناء به وبنظافته ويجب الاعتناء بصحة الإنسان والتداوي من الأمراض ومراعاة أسلوب الحياة الصحي».

تساءل آدم في نفسه «ولكن ما الجديد في ذلك؟».

«الناس على الأرض أصبحوا يهتمّون بمظاهرهم الشخصية ويولون زينة أجسادهم ولبوسهم أكثر من الإهتمام بعقولهم وأفكارهم والعالم الدائر في نفوسهم. بعض الأديان تدّعي الاهتمام بالعقل والأمر بأعماله ومع ذلك تنشر الخرافة والأسطورة حتى غدت سبيلاً لتفسير ما غمض. يجب تنقية الأفكار من هذه الترسّبات الغيبية ووضع حياة الإنسان بين يديه، فهو الذي يتحكم بقدره».

تابع الصوت «خامساً: يجب احترام العقائد والأديان والثقافات الأخرى وعدم التعرّض لأصحابها، ولا يجب إجبار الناس على اتباع نمط تفكير معيّن، والدعوة إلى العقل تكون بالإقناع المنطقي والفكري».

«ماذا لو أن الطرف الآخر حاول فرض فكرته أو معتقده عليّ؟ وكيف أتعامل مع الإضطهاد الناتج عن الدين أو السلطة أو المجتمع؟ ماذا لو لجأوا إلى العنف؟».

«الحرية فطرة مجبولة في النفس البشرية، وهذه الحرية تتيح للمرء التعامل مع الضغوطات والمواقف الصعبة. وفي حال الاضطهاد الفكري، فإن الالتفاف مع الذين يشاطرونا الرأي والتفكير أمر حميد. فمع تعاون الجهود يمكن إنشاء قوة مقاومة. وبإمكان المرء اللجوء إلى المجتمعات التي تقدّس الحرية والتي لديها أيضاً قوانين لردع العنف، والإصلاح يحدث في أي مكان ما أن تُنظّم الجهود وتتكاتف».

«سادساً: يجب الاهتمام بالفنون بجميع أشكالها من رسم وموسيقى وشعر ونثر وغيرها، لأنها أمور المغذي تُعَدّ الأول لحياة عقلية رفيعة وذات معنى. والفنون من شأنها أن تخلق قنوات للحوار

بين الحضارات والثقافات».

لم يكن لديه اعتراض مبدئي على هذه القيمة، لكن لم يستطع أن يمنع نفسه من التساؤل «ولكننا نرى كثيراً من مظاهر تدنّي الذوق العام والابتـذال فـي الفـن وبعضهـم يخرج عن المعاييـر الأخلاقية المتعارف عليها في المجتمع؟».

«علينا الإقرار أولاً إن حرية التعبير مقدّسة وهي مكفولة للجميع، وهي التي تغلب على حسـاب أي عرف تقليدي أو مذهب سياسـي أو شريعة دينية. لأن حرية التعبير هي أساس تقدّم الحضارات ومن خلالها يطلـق الفـرد أقصـى طاقاته وتتفجر بذلك خزائن إبداعاته. بالإضافة إلى ذلك فإن الفرد يشـعر بتكامل في شـخصيته حين يصبح بمقدروه التعبير عـن نفسـه بـدون مضايقـات أو تضييق. في المقابـل يجب وضع معايير وأسس لتمييز الفن الأصيل عن ما سواه. قد يكون هنالك ما يشبه الفن يـراد بـه التسـلية والترفيـه، وهـذا لا بأس به لكن يجـب وصفه الوصف الصحيح وعدم إعطائه أكثر من حقه. والتعليم الجيد من شأنه أن يجعل المرء يقدّر الفن الحقيقي الرفيع».

أحـس بأنـه أصبـح أكثـر خفّـة. دار بـه المـكان، أو دار بـه رأسـه. تراقصت إمعاؤه داخل بطنه، وعقله كأنه كان يود الخروج.

«بقيت القيمة السابعة والأخيرة وهي: ضرورة المساواة بين جميع النـاس، بيـن الرجل والمرأة، وبيـن جميع أجناس وأعراق الأرض. كما يجـب حفـظ حقوق المخلوقـات كالحيوان والنبات والطبيعة. ولا يحق تعذيبها أو تلويثها أو العبث بها من غير أي مصلحة».

حالته السـيّئة منعته من التسـاؤل، وهو يشـعر بأنه مقتنع تماماً بما

يقال له. لقد دارت تلك الأفكار في عقله من قبل لكنه لم يستطع أن يعبّر عنهـا. كان يحلـم بالعدالـة والحرية والاحترام المتبـادل، ويحلم بانتهاء الحروب والاقتتال. أصابه نعاس قويّ واللون الأبيض أصبح أكثر بياضاً.

علـى نفـس الصخـرة تحلّـق حوله صحبه وهو مغمـي عليه. النهار الحـار عـمّ المـكان حضـوره. النجـم السـابق تحـوّل إلى شـمس. وهو كميتٍ يصحو من نوم عميق امتد لمئات من السنين. عيناه جاهدتا لكي تفتحـا، حجـم المسـؤولية الجديـدة أثقـل روحه ولم يسـتطع النهوض. هـل سـيُحْدِث هـو التغييـر؟ هـل سـيكون سـبباً فـي إحـداث الفرق في حيـاة النـاس؟ مـن أين يبدأ وإلى أين يذهب؟ أين ذهبت الأصوات، هل ستتخلّى عنه؟ يجب عليه حسبان الأمور بصورة صحيحة ووضع خطة محكمة لبدء عمله.

«آدم.. آدم هل أنت على ما يرام؟ ما الذي حدث لك وأين كنت؟ لقد بحثنا عنك طوال الليل وكنا على وشـك الاتصال بالشـرطة في هذا الصباح؟ هيا قم لنحملك إلى المستشفى».

قـام ببـطء كعمـلاق يخـرج مـن البحر. النظـرات من حولـه فزعة ومذعورة وقلقة.

«.. من آدم هذا.. أنا اسمي سميث؟..».

أكثر المتشائمين تفاؤلاً

كان الصيف غافياً باستسلام المسترخي على أهداب المدينة، يلفح أنفاساً باردة، إذ كان على وشك الاستيقاظ والرحيل. مشى يتأبط النهر من على يساره بينما ترافقه من يمناه عصاه نحو مقصده. لم يكن غرض تلك العصا إعانته على المشي، فلم يكن يشكو من أي شيء في رجليه، إنما كان يتلهّى بها ويُفرغ في تحريكها بعض شحنات أفكاره المتدفّقة. توقّف قليلاً أمام الحاجز الحديدي المطل على النهر وأخذ يراقب الشمس وهي تسحب النهار في غروبها. من المؤكد أنها شارفت على الثامنة مساءً كما استدل من درجة اللون البرتقالي في أفق السماء. استند إلى القضبان الحديدية بينما عبرت بجعات بيضاء من أسفله، بعضهن سباحة وبعضهن طرن قريباً من سطح الماء. اجتاحت أنفه روائح مختلطة، ميّز منها رائحة محركات العبارات البخارية ورائحة القهوة. «ترى ما الدافع الرئيسي لهذا الكون؟» تساءل في نفسه. «ما هو المحرّك الأول؟ ما الذي يجمع ذرات هذا الكون حتى صارت في مثل هذا التناغم والتناسق كسميفونية موسيقية مثالية؟ أين تكمن تلك الطاقة الدافعة للزمن التي لا تتوقف عن الحركة وما هو انعكاسها بالنسبة للمكان؟

في المقهى ما أن رآه النادل الذي يعرفه جيداً حتى حرّك يده في الهواء إشارة تدل على شرابه المعتاد. لكن صاحبنا هز رأساً نافياً وقال

بصوت عال «لدي صحبة». هل الإرادة واحدة في كل شيء؟ هل الروح إرادة؟ وما شكل الإرادة التي تحرّك الأجرام في الكون؟ هل الجاذبية هي بمثابة الروح للكون؟ قطع عليه سريان أفكاره وقوف سيد متأنّق جداً، كأنه في لباسه ذاك في زيارة لدار أوبرا أو في حفل رسمي، هو الآخر كان يمتطي عصا لكنه كان يستعين بها للمشي كما يدل على ذلك عرجه الخفيف. «مساؤك سعيد، أتمنى ألاّ أكون قد تأخّرت سيد شوبنهاور؟» قال ذلك وجلس مقابل صاحبنا وأخرج دوسييه كبير يحتوي على أوراق مجموعة بخيط في نهايتها.

حين جاءت القهوة تحوّل مجرى الحديث من الأمور العامة إلى الغاية التي عُقد من أجلها هذا الاجتماع. «آرثر كتابك رائع وعميق، كما يجدر بكتب الفلسفة أن تكون، لكنه في الوقت نفسه شديد الاختصاص وصعب القراءة على القارئ العادي». أعجبته رائحة القهوة لكنها ليست كتلك التي يعدّها بنفسه كل صباح بعد أن يعود من مشيه الطويل. «أنا أدرك ذلك تماماً، وكتابي ليس موجّهاً للجميع. وهو، متى ما تمّ فهمه، سيحدث ثورة هائلة في عالم الفكر». كان الناشر رجلاً في الثلاثين من عمره وبه وسامة جليّة وشعره الأشقر المائل إلى البياض، من غير شيب. أمام صمت الناشر أضاف صاحبنا «إذا كنت تنتظر عائد تجاري كبير من الكتاب، فدعني أخبرك من الآن أن ذلك لن يحدث، ليس على المدى القريب أقلّه».

كوبان آخران أتيا وكأن ذلك إشارة ما، إذ فتح الناشر الدوسييه الضخم أمامه وقلّب في الأوراق وبيده قلم رصاص. عند كل ملاحظة كان يشير إليها الناشر كان صاحبنا يهز رأسه، سواء رافضاً أو موافقاً،

يرافـق ذلـك طرقـه الأرض بعصـاه بخفة. يهرش شـعره مـن حين لآخر ويغيّر وضعية جلوسه كلّما أراد الرّد أو الحديث. قبل أن ينتهيا كان قد شـرب كل واحد منهما سـتة أكواب من القهوة السـوداء القوية. جرّهما الصمـت بعـد ذلـك إلى حالة من الذهول العميق بحيث جلسـا يحدّقان في بعضهما من غير أن ينطقا بحرف واحد.

«أعتقـد أننـي قـد انتهيـت هنا، إلا إذا كان لديـك ما تضيفه آرثر؟». فلتـت مـن صاحبنـا نصف ابتسـامة ولـم يقل شـيئاً. حين رأى أن الناشـر كان يتأهّب للمغادرة قال: «ما رأيك في كأس من الشـراب؟» هزّ الناشـر رأسه موافقاً. طلب كأسَي شراب من مكانه بصوته الجهوري. حين عادا للصمت أخذ شـوبنهاور يحرّك رأسـه طرباً لموسـيقى خفية لا تسـمع. «من بين كل الأشـياء من حولنا أراني ممتناً لوجود الموسـيقى أكثر من أي شـيء آخر. فكل الفنون ما هي إلا نسـخة من شـيء موجود أصلاً، فحين ترسم لوحة ما فإنك تنقل عن شيء أمامك، إنساناً كان أم حيوان أم جماد وكذلك النحت. والشعر هو الآخر ما هو إلاّ انعكاساً لمشاعرنا وأحاسيسـنا وترجمة لأفكارنا إلا الموسـيقى، فالموسـيقى تأتي مباشـرة مـن الإرادة العليـا». أمن الناشـر على كلامـه وأخذ يتحدث عن أحدث المقطوعات الأوبرالية والمسـرحيات الموسـيقية ومختلف الموسيقيين وصاحبنـا غـارق في لجة أفكاره الخاصة وينقر بعصاه الأرضية المبلطة كأنه يحاكي معزوفة موسيقية ما.

بسط الشراب أساريره وجعله في مزاج أفضل وبدا الأمر كذلك لصاحبه الناشـر، فتطرّقا بالحديث إثر ذلك في الأمور الشـخصية. بعد أن أعلن الناشر عن قرب زواجه من خطيبته ألقى السؤال التالي: «ماذا

عنك يا آرثر؟ ألا تنوي الزواج قريباً؟ أليست لديك صديقة مقرّبة؟ هيا، أصدقني القول، فأنا صديقك قبل أن أكون ناشرك». «قبل أن أجيب عن سؤالك، دعني أولاً أطلب المزيد من الشراب». رفع كأسه الفارغ في إشارة للنادل بأن يأتي بالمزيد «يا صاحبي العزيز، هل تريدني أن أقبر مستقبلي المهني قبل أن أبدأ. ألا تعلم أن الزواج نقمة على العبقرية». نظرات الناشر طلبت المزيد من التفسير «المشكلة تكمن في المرأة يا عزيزي. لا تسيء الظن بي، هنالك العديد من النساء الرائعات اللواتي يحملن شخصية عظيمة. ولكن طبيعتهن الضعيفة ومحدودية تفكيرهن.. هناك.. هنالك يكمن الخلل. ومن ثم فإن فكرة الزواج برمّتها لا تروق لي. أنا أشعر بأنني على موعد مع المجد وفكرة الارتباط بشخص ما سوف يخل بنظام حياتي الدقيق وسوف يعكّر جدولي اليومي الذي وزّعته بين الكتابة والقراءة والمشي وإلقاء المحاضرات. ناهيك عمّا يترتّب عن الزواج من ملهيات ومشتتات للفكر. وأضف إلى ذلك كله الأطفال، تلك المخلوقات الصغيرة المزعجة». لم يكن رأي صاحبنا بجديد على صديقه الناشر، لكنه ظن أنه ربما مع مرور الوقت أن رأيه سيتغيّر. «ولكن ماذا عن السعادة التي تجلبها العائلة، الحب الذي يملأ حياة الفرد. ربما كنا نملك أفكاراً ومعتقدات مختلفة، لكن حين يكون الأمر متعلقاً بمشاعرنا ورغباتنا الأساسية فنحن متشابهون». نظر آرثر إلى صاحبه نصف باسم. عاد إلى النقر بعصاه وهو يقول «السعادة. الحب. رغبات أساسية. يا للطريقة التي نلق بها المصطلحات جزافا. يظن الكثير منا أن السعادة هي في اقتناص ملذات الحياة، وهذا خداع للنفس. أولاً الحياة مليئة

بالشّـقاء والتّعاسـة والعالم فيه شـرّ لأن الإرادة هي التي تدفعنا لتلبية رغباتنا الأساسية وذلك يجعل من المستحيل أن نحيا في سعادة كاملة. والذين تقع لهم ما يسمونه بـ «السعادة» هي في حقيقة جوهرها سلبية، لأنه لا يمكن إدراك قيمتها إلا إذا فقدناها».

حلّت عليهما حالة غريبة من التأمل الداخلي، كأنهما توقفا ليتحدثا مع نفسيهما. الشراب الذي احتساه الناشر جعله يعدل عن فكرة الرحيل. بـدا مرتاحـاً فـي مكانـه ذلـك لدرجة أنه جعلـه يلغي مشـواره الأصلي. مفكرنا العظيم انشغل بالنظر نحو الأضواء الخافتة للمدينة الكسولة. في أثناء ذلك دخل المقهى شـاب وفتاة، تسـبقهما الضحكات والبسـمات، متشابكي الأذرع يغلّفهما حب بكر حديث العهد. لا شيء لافت فيهما غيـر أن الفتـاة كانـت تلبـس رداء أقل ما يقال عنه أنه غير محتشـم. حرّك آرثر عصاه في الجو كناية عن امتعاضه عن المشـهد الذي أمامه. «بقدر كرهي الشديد للرهبنة ورجالها، فإن كرهي للخطيئة والابتذال لا يقل عن ذلك قدراً» أعلن من غير مقدمات. حين انتبه الناشر إلى ما يعنيه صاحبه قال «لا أعلم عنك هذا التحفّظ، هذا يناقض كلية دعوتك إلى الحرية». «يا سيدي الكريم إن الخطايا والأفعال المشينة كالكذب والنفاق والجهل والتعصّـب والقتـل والابتـذال منبعها الإرادة الداخلية التي تسـيّرنا والتي تظهـر نفسـها فـي أفعالنـا. ويجـب علينا قهر هـذا الجزء مـن الإرادة إذا أردنا الاقتراب من الحقيقة المطلقة للنيرفانا. فالحرية تكمن في الابتعاد قـدر الإمـكان عن الإرادة». شـبك الناشـر ذراعيه ليفكّـر بضع ثوان قبل أن يقول «يا رجل، إن لم يكن هنالك ما يخالف القانون فلا أرى بأسـاً في أن يمارس الناس الحرّية بالطريقة التي يرغبون فيها. وإذا كنت ترى

أن هنالـك خطايـا ترتكـب بحـق النفس والعقل، فإن لـم يشـق مرتكبوها بنتائجهـا هنـا عوقبوا في الحياة الأخرى». ضرب شـوبنهاور العصا بقوة دليلاً على انفعاله «هذا نحن عندما نعجز عن تفسـير شـيء ما، نسـتعين بالخرافة أو ننشئ له خرافة تناسبه. دعني أقل لك شيئاً، علينا أن نتحلى بالشـجاعة الكافيـة لنكون مسـتقلين فـي تفكيرنا، وأن نتحمّل مسـؤولية أفعالنـا. فالعقـل لا حـد لإمكانياتـه وقدراتـه. وبالعقل فقـط يمكننا حل جميع مشـاكلنا والتغلب على العقبات التي تواجهنا. علينا ألاّ نتبع أمرا ًلمجرد أن الجميع يفعل ذلك.

لم يكن لأي جدال أن يعكّر صفو علاقته مع أصدقائه، مع قلتهم، فهـم يعلمـون حـدة أفـكاره الخارجـة عـن المألوف، وهو بـدوره يتفهّم تحفّظهم. فهم في نهاية الأمر نتاج تعليم أكاديمي جامد يعادي الأفكار الجديدة والمواقف الثورية. خرج وهو منتش في ليل دريدسـن البارد، الـذي أعلنـت رياحـه عـن قرب موعد الخريـف. كان يحفظ طريقه نحو البيـت عـن ظهـر قلـب، فلم يكن في حاجة لأن ينتبـه إلى الطريق أمامه. عوضاً عن ذلك سبح غارقاً في محيط أفكاره الهادر. «أليس هذا التفكير نقمـة؟ أليـس هـذا البـركان الثائر في عقلي يشـقيني أكثر مما يقرّبني إلى الحقيقة؟ ماذا لو كان الأمر أبسط من ذلك بكثير؟ ماذا لو كانت الحقيقة زهرة مزروعة على أرض منبسطة سهلة المنال، بينما أبحث أنا عنها في شـواهق الجبـال؟ مـا طبيعـة هذا العالم من حولنـا؟ هل يختلف جوهره عن مظاهره؟ أنا أعلم أن هذه الطبيعة، التي تشـمل الإنسـان نفسـه، هي انعكاس للطريقة التي نتصوّرها بها، وما يدفعها لهذا التمظهر هي الرغبة أو الإرادة للوجود. ولكن ما الدافع لهذه الإرادة؟

لـم يـدرِ بنفسـه إلا وهـو أمام البناية التي يقطـن فيها. بينما هو يغيّر ملابسـه للنوم، أتته فكرة أن الأمر برمّته يكمن في التلقي نفسـه، أي قبل أن تتكوّن التجربة. وفهمنا للأمور لا يكون بمعزل عن قدرتنا على التلقي وهو ما يحدد أصل التجربة نفسها. أراد أن يقطع تفكيره هذا لأنه يرغب في الخلود إلى النوم. أتاه دافع غريب في الرغبة بكتابة الشعر. وبالفعل بـدأت قصيـدة تتكـوّن فـي عقلـه. تتقافـز في ذهنـه الكلمـات كمذنّبات وشـهب تسـبح في الفضاء السـحيق، وتتطوّح بعقله الصور والتشبيهات كسـفينة فـي قلـب عاصفـة هوجاء. لكـن حين حاول ترتيـب الكلمات والجمل ووضعها في قالب واحد لم تعجبه المحصلة النهائية.

سـمع أصواتـاً تأتـي من الشـقّة المجـاورة ميّز منها صـوت جارته المزعجة ذو الأصول الفرنسية. إلهي كم يكره تلك المتطفّلة. إنها المثال الأكمل لنظرته السلبية نحو المرأة بشكل عام. أتت مع زوجها المتوفي حالياً من سنوات عدّة. سحقاً لهؤلاء الفرنسيين كم هم صاخبون. زحف إلـى آخـر السـرير ومـدّ يـده على اتسـاعها وأخذ يبحث فـي الظلام عن عصـاه. ضـرب الجـدار بقوّة كي ينبّه جيرانه على الصوت العالي. ولكن من يزور تلك الشمطاء في هذا الوقت؟ كم من مرة رأيتها تكلّم قطّتها. أظـن أن الوحـدة سـتدفعها للجنـون. أكاد أجزم أن سـبب مزاجها العكر وعصبيتها الدائمة هو أكلها لكل ذلك اللحم وخاصة لحم الأوز فدائماً ما أرى صبي القصاب يأتيها بواحدة كل أسبوع. من أجل ذلك تركت أنا أكل لحوم الحيوانات. فلا أرى سبباً أن تتعذّب تلك المخلوقات الجميلة من أجلنا نحن ومن أجل أن نملأ بطوننا. كثرة الشبع تؤثر على التفكير على أية حال، والأكل الزائد عن الحاجة مدعاة للأسقام.

صوفي.. أزهر الإسم في عقله وتحرّكت شفتاه ناطقة به. رآها في ذلك النزل في قرية رودلشتات في طريقه نحو درديسن، تعمل مع أمها التي تملك النزل. فتاة خجولة لا تنظر إلى وجوه الآخرين. هادئة وقليلة الكلام، وحين تتكلّم يمكنك الشعور بمستوى تفكيرها العالي، رغم أنها لم تتلقَّ أيّ تعليم كما بدا له. لم أنتبه إلى جمالها القروي الأخّاذ إلاّ حينما بدأت التفكير في كتابي الذي بدأت في تأليفه حينها. لحظة.. أظن أن القصيدة تعود من جديد. أفكار مدججة بالسلاح تمنعني من الوصول إليك. بعد ذلك كنت أبحث عن أي طريقة لرؤيتها وكنت أختلق الأعذار للتكلّم معها، حتى أنني أطلت مدة بقائي هناك أسبوعين آخرين. زهرة مشرقة في أرض رمادية. عرفت اسمها من أمها لكني مع ذلك أردت أن أسمعه بصوتها العذب. وجودك أغنية.. اختاري من النجوم جوقتك كما تشائين. تمضي الأيام وتتعاظم الرغبة في داخلي. لم أكن لأصدّق أن فتاة بإمكانها قلب موازيني بتلك الطريقة. يا من أنزلتني من عرشي لأقبّل الأرض بين قدميك. بدأت في التصرّف بكل سذاجة أمامها، حتى أنها كانت تبتسم من حين لآخر من أعمالي الخرقاء. نهر واحد يعبر روحينا ويصب قبلاً شهية نتبادلها تحت ضوء القمر. ومع تركي قليلاً لصرامتي مع النساء تشجّعت هي وأصبحت تتكلّم معي قليلاً. سألتني عن عملي وعن طبيعة ما أكتبه. حين علمت أنني عملت كأستاذ في الجامعة أخذت تحدثني عن أبيها الميت وكيف حرص على إدخالها الدير لأنه كان المكان الوحيد الذي يوفّر لها التعليم بلا مقابل. لكنه مات وهي صغيرة، بعد ذلك أخرجتها أمها من الدير لأنها كانت وحيدة وبذلك لم تستطع إكمال تعليمها. ريقك يا

ظبية الغابة يجلب لي السعادة أركض وراءك ولا أستطيع اللحاق بك. قبل رحيلي بيومين، استيقظت ذلك الصباح وفي داخلي شعور جديد، شعرت بخفّة في جسدي، قلبي يرقص على أنغام خفيّة، روائح زكية كأزهار الربيع ملأت صدري، ضوء الشمس كان حالماً وكل شيء من حولي بدا أكثر إشراقاً، جميع مشاكلي أصبحت تافهة، أحقادي طُمرت تحت ورد من التسامح وكل الذين كنت أكرههم وأمقتهم غفرت لهم، شعرت بالحب، شعرت بالسعادة، شعرت بالتفاؤل. في ليلة ذلك اليوم وبينما كنت أكتب على ضوء شمعة سمعت طرقاً على الباب. أذنت للطارق بالدخول. كانت هي في فستان ملائكي، أحد ملهمات الشعر رغم أني كنت أكتب فلسفة. هي الأخرى كانت تحمل شمعة لتنير لها الطريق. وقفت أمامي كالخائفة ولم تقل شيئاً. استطعت أن أرى ارتعاشة صدرها من خلف لباس نومها الأبيض. ضوء الشمعة الذي في يدها أنار نصف وجهها فقط. «آسفة على إزعاجك سيدي». كانت تلك أول مرّة تأتيني في ساعة متأخّرة كتلك. «لا بأس، كيف بإمكاني مساعدتك؟» ندمت على تصنع الجدّية، لكني لم أكن أقل ارتباكاً منها. وضعت أمامي ورقة بيضاء خالية. «إني شديدة الحرج منك سيدي، لكن أريد منك خدمة صغيرة..». شعرت بقلبي يتقافز داخلي «لا تخافي اطلبي أي شيء». شمعتها كانت على وشك الاحتراق الكامل. «هنالك شاب يعمل في محل الأجبان والشراب حيث نشتري مؤونتنا.. شاب مهذّب ووسيم وطيّب.. نتكلّم كثيراً وأنا، تعلم، أحبه.. لكنه لا يعلم. وحين أحاول إخباره بحقيقة مشاعري ينعقد لساني وينتابني حرج شديد، لذلك أردت أن أكتب له رسالة صغيرة أشرح فيها شعوري

نحوه وحبّي له. وأنا لا أعلم كيف أعبّر جيداً بالكلمات. لذا أريدك أن تساعدني» رغم أن قلبي كان يهوي شيئاً فشيئاً أثناء حديثها، إلا أنني وافقت على مساعدتها. تراجع شخصي الجديد خلف ظلال موقفي القديم من النساء وعاد تشاؤمي بصورة أقوى وأكثر جاذبية. هربت القصيدة مرة أخرى وهرب تفاؤلي معها.

إبليس الطيب

كان يأتيه الشـك أكثر ما يأتيه أثناء المحاضرات الدينية. بدأ يفكّر في سـن يافعة فيما يُلقى على سـمعه. لم يمنعه وجوده في وسـط ديني متشـدّد فـي أن يعـرض مـا يلقّنه مـن يقينيات على عقلـه ومنطقه. تهجم عليه الأسئلة بضراوة بينما الناس من حوله غارقون في انتشاء استلابي كالمتعاطـي للأفيـون. مجموعـة مـن المتناقضات تتشـكّل أمامه كجبال عظـام تحجـب عنـه الرؤية فـي حين يهـزّ المؤمنون الواثقون رؤوسـهم بـكل اقتنـاع. يحـاول في بعض الأحيان أن يخرج هذه الأسـئلة للوجود بكل لباقة وكياسة كي لا يقع في دائرة التشكيك المكفّر. يسأل إخوانه بصورة بريئة كطالب يستوضح عن شيء أشكل عليه وتأتي الإجابة غير شافية لما يضطرم في داخله.

جـرت العـادة أن يلتحـق بمعهـد دينـي كل صيـف، يتلقى مختلف التعاليـم التعبديـة ويسـتزيد، مـن غيـر زيـادة أو جـدة، مـن المعلومـات القديمـة. لكـن فـي السـنة الأخيـرة له في المدرسـة رفض ذلـك متعللاً بانتظـار نتائـج الثانوية اسـتعداداً لما هو قـادم. في ظروف أخرى ما كان ليسـمح له بذلك، لكن ولأنه في مرحلة انتقالية من حياته تم التسـامح معه. في المجمل العام كان له أن يدرس ما يشاء في الجامعة، على أن لا ينسى وظيفته الأساسية وهي حامل «للعلوم» الدينية ورجل دين محتمل. ظهرت النتائج وتمّ قبوله في جامعة جيدة لكن خيار دراسته أحدث بلبلة

واضطراباً، فقد اختار أن يدرس الفلسفة، وهو ربما العلم الوحيد الذي يقوم بنقد منهجي للدين. بعد أخذ وشدّ وبعد أن قدّم تبريرات من بينها أن الفلسفة تشبه التاريخ في ملامحها الرئيسية وهو يطمح بها أن يكون أستاذاً جامعياً في نهاية المطاف، مرّت العاصفة بسلام لكن مع ترك بعض التصدعات النفسية.

في خضم كل ذلك كان إدريس شاباً طيّباً، محبوب عند الناس، مشاركاً فاعلاً في مجتمعه، يهبّ لمساعدة الجميع ويقدّم العون للكل قريباً كان أم غريباً، محافظاً على واجباته الدينية والاجتماعية. الجميع يسعد لرؤيته والكل يرحّب به في مجلسه. حتى أطلقوا عليه لقب إدريس الطيب. لكن بدأ الوضع في التغيّر حينما بدأ ينشر مقالات في الصحافة. كانت تتضمّن هذه المقالات في البداية نقداً للمجتمع ولبعض سلوكيات وعادات الناس إلى أن أخذت في التعمّق في مواضيع شائكة من مناقشة المسلّمات الدينية بنكهة فلسفية. كانت الصحف والمجلات التي ينشر فيها لا تُقْرأ في محيطه لطبيعتها المتحررة ولاتجاهها الفكري، لكن بعض الأقرباء وأصدقاء العائلة قد أوصلوا الموضوع إلى إخوانه وأبيه ممّا دعا أكبر إخوته إلى الاجتماع به ومناقشته في بعض ما يكتبه. كان إدريس متحدثاً بارعاً ويجيد استخدام الحجج الفلسفية. لم يقتنع أخو إدريس بكلام أخيه لكن عقله الديني المحدود لم يسمح له بمجاراة أخيه في مستوى النقاش فتركه وشأنه. أما أبوه فالحوار معه كان من طرف واحد. وهو لم يكن حواراً على الإطلاق بل تعنيفاً وصراخاً وتقريع. لم يكن يفهم ما الذي كتبه ابنه بالضبط وأثار كل هذه الضجّة، كل ما يعرفه أنه كان مخالفاً للدين والعرف.

وتخرّج إدريس بتفوّق ظاهر لكنّه رغم ذلك لم يحصل على عمل في التدريس. كان عليه الانتظار طويلاً، لأن سيل المتقدمين كان جارفاً. في تلك الأثناء عمل في أحد المصارف بأجر متدنٍّ. قبل بذلك الأجر لأنه كان يودّ الخروج من البيت بعد أن أصبح الوضع لا يطاق. كان أبوه يلحّ عليه حتى يتزوج فلم يعد له من عذر بعد أن توظف. لكن إدريس كان يتهرّب ويتعلّل بحاجته لمزيد من الوقت لكي يوفّر المال اللازم. في أثناء ذلك لم يتوقّف إدريس عن القراءة والكتابة ولم تتوقّف كذلك صداماته مع عائلته. بعد سنتين من تخرجه أصدر إدريس كتابه الفكري الأول. رغم إجازته للنشر وقلّة قرّائه إلاّ أن الحكومة حظّرته بعد ذلك بعد تلقّيها شكوى من المكتب الشرعي.

أعجب إدريس أكثر ما أعجب بالفيلسوف الألماني المشهور نيتشه. أحس أن ذلك ما يحتاج إليه مجتمعه، أفكار صادمة قوية تهزّه من الأساس علّه يتحرك. كان يقضي جلّ وقته في البيت في القراءة. لكنه انتقل للعيش بمفرده بعد أن ضُيِّق عليه. قبل ذلك طلب أن ينقل إلى أبعد فرع بعيداً عن بيته ثم أتى بهذا العذر كي يستأجر غرفة ويسكن فيها. شاطره العيش في تلك الغرفة كمية هائلة من الكتب احتلت نصف مساحة غرفة نومه. كان مسكنه يتكون من غرفتين، غرفة النوم وحمام. التهم معظم كتب الفلسفة التي وقعت بين يديه خاصة كتب نيتشه. أصبحت كتاباته مع الوقت شديدة اللذع وجريئة وواضحة في مبتغاها مما جعل جميع الصحف ترفض نشر مقالاته، فما كان له إلا أن لجأ للفضاء الإلكتروني. وحتى هناك لم يسلم من الملاحقة والاعتقال. حيث تم استدعاؤه كثيراً لدى مكاتب مختلفة للأمن ومرة لدى مكتب

للمتحدث الرسمي للدين.

شدّة إحباطاته ويأسه من طريقة تعاطي محيطه مع أفكاره وكتاباته جعلا تلك الافكار تخرج من محيط عقله وتنتقل إلى طرف لسانه. في العمل لوحظ عليه أنه يدخل في مناقشات جانبية مع الزبائن في مواضيع ساخنة كالدين والسياسة وبعض تلك المناقشات انتهت بحدّة، مما حدا ببعض الزبائن للتقدّم بشكوى ضده. في نهاية يوم من أيام العمل استدعي إلى مكتب مدير الفرع. أمره المدير بالجلوس وأخذ يتأمّله كأنه يشاهد قطعة أثرية في متحف ما. «إدريس ابني اسمعني. أنت موظّف جيّد ومواظب على عملك لكن في الآونة الأخيرة زادت الشكاوى عليك». لم يجب إدريس بشيء محدّقاً في تمثال خشبيّ صغير لفيل موضوع على طاولة المدير. «أنا أعلم أنك خرّيج جامعي وشخص مثقّف وكاتب وإن هذا العمل لا يناسبك، لكن في المقابل أنت تتقاضى أجراً عليه وذلك يقيّدك باتباع قوانين العمل ومتطلباته». «سأتركك الآن مع إنذار شفهي فقط راجياً أن يتحسّن سلوكك لكن إن استمرت حماقاتك فاعذرني، سأضطر إلى اتخاذ إجراء أكثر صرامة». لكن ما حدث كان عكس ذلك وكانت النذر تشير إلى قرب تسريحه. وممّا عجّل برحيله تزامن زيارة مسؤول من الإدارة العليا لفرعهم وتشاجره مع أحد الزبائن بعد أن احتدم بينهما النقاش حول فائدة الطقوس التعبّدية واصفاً إدريس إياها بالطقوس الوثنية.

***

تجنّبت لقاء أبي قدر المستطاع لكن لقائي معه كان محتوماً بعد أن يعود من المدرسة الخاصة التي يعمل فيها كمُدرّس علوم دينية. فبعد

تقاعده من العمل الحكومي كواعظ، وجد في نفسه القدرة والرغبة على العمل رغم أنه ليس في حاجة إلى المال. لم أجد في البيت إلاّ أخي الأكبر والأرمل بلا ذرّية. وعلى عكس ما توقّعت لم يسخر منّي أو يوجّه لي كلمة انتقاد بل سأل عن أحوالي في هدوء مخيف. أتى أبي وأمهلني حتى أجد عملاً آخر بعد طردي من البنك لأنه قد خطب لي إحداهن لأتزوجها. لم أجد ما أقوله. انعقد لساني أمام ثقة ويقينية أبي حتى أتى الليل وفكّرت في الانتحار.

وجدت عملاً في شركة حماي المفترض. كنت قد توقّفت عن قراءة الكتب بعدما تذوّقت حلاوة اليأس الشهية، واكتفيت بالكتب الدينية التي كان يفرضها عليّ أبي بطريقة غير مباشرة. عدت كذلك للمواظبة على الفروض والطاعات الدينية. أطلقت لحيتي وقصّرت ثوبي. كنت أحضر المحاضرات والدروس الدينية حتى أصبحت أنا الذي ألقيها. وبذلك استحققت لقبي القديم «إدريس الطيّب» بجدارة مرّة أخرى. لكني غدوت أكثر صمتاً وأعمق عزلة ولحسن الحظ فقد عزي ذلك إلى المرحلة الانتقالية التي كنت أمرّ بها في عودتي إلى الدين.

كان يجري في قريتنا الشبه نائية سوق سنوي له أهمية شديدة لدى الأهالي إذ إن قريتنا كانت مشهورة به ويأتي إليه الناس من قرى ومناطق مجاورة كتقليد شعبي ضارب في القدم لم يستطع أن يغيّره الزمان. وكان يُعَدّ لهذا السوق كحدث استثنائي يكاد يكون مقدّساً لدى البائعين. تنظّف الساحة جيداً. تُقتلع الأعشاب الضارّة. تُزاح الصخور الكبيرة وتسوّى الأرض. يقوم بذلك رجال الشيخ الذين يقومون أيضاً بتخطيط الأرض لتحديد مساحة كل بائع.

قبل ستة أشهر من بدء موسم السوق السنوي تعوّدت أن أخرج بعد منتصف الليل وأجلس على ربوة بجانب المسجد وأتأمل السماء المرصّعة بالنجوم، أو أنظر في الحلكة الأبدية للكون. كنت أتخاطب مع السكون وأتحاور مع الظلال اللامرئية. تتجسّد الكلمات في عقلي فيتراءى لي أن هنالك أحداً يكلّمني فكنت أرفع صوتي أحياناً. أظل على هذه حتى يقطع عليّ خلوتي الصوت المزعج المنادي للخضوع وتغييب العقل.

حدث أن مات أخي الأصغر فجأة هكذا بلا مقدمات قبل شهر من بدء السوق. جاء هذا الأمر صادماً جداً لأبي لأن أخي الأصغر كان المفضل لديه، فهو كان خليفته في حمل الدين بعد تمرّدي وانشقاقي والذي لم يغيّر تفكيره عودتي للدين. كان أبي يعقد عليه آمالاً كبيرة لورعه وتقاه ولعلمه الغزير (إن كان يعتبر الدين علماً) وحماسته الشديدة لنشر «الدعوى». في تلك الليلة سمعت كلاماً يخرج من فم أبي لم أعتقد في حياتي أني سأسمعه. عبارة واحدة تلفّظ بها جرحتني أكثر من غيرها إذ قال في عزّ فورته الغاضبة «لماذا يا رب أخذت جوهرة قلبي وتركت لي براز إبليس هذا؟». أخذت أردّد ذلك السؤال حتى بزغ الفجر. وفي الصباح رأيت أناس يقودوني إلى البيت ويقولون لأبي لقد رأيناه يصعد الجبل وهو يصرخ بكلام كله كفر وحين سألناه إلى أين هو ذاهب أجاب أنه ذاهب إلى الله يسأله لماذا أخذ أخاه وأبقاه هو؟

وهكذا تمّ تركي وشأني. مع وضعي الجديد أصبحت أكثر سعادة. لا أحد يزعجني بأيّ شيء وكنت أجري محادثات مع أناس أذكياء يتراؤون لي. أبي وهو الغارق في حزنه على أخي الميت لم يهتم بي،

إلا أن أخي الأكبر أصرّ على ذهابي للصلاة في المسجد. ولكن الأهالي احتجوا على ذلك عندما بدأت أضحك بشدّة حين أسمع كلاماً يناقض العقل والمنطق. وحين يقوم الإمام بالدعاء على المنافقين والمشركين أرفع يديّ لأوجّه صفعة قويّة لرجل ذي لحية كبيرة جداً جالس بجانبي معروفاً عنه نفاقه.

في يوم السوق نهضت مبكراً. غطست في الحوض الذي يُجمع فيه الماء المراد لسقي المزروعات وتركت النسيم الصباحي يطرد البلل مني في رقة باردة. أكلت ثمرة تين ولعنته في سرّي. كان الناس يتسابقون زرافات نحو السوق والضحكات تصدح من أفواههم كأنه العيد. كانت المصاطب موضوعة والبسط مفروشة لعرض المنتجات من خضار وأدوات فلاحة وتمر وملابس وخناجر وأسلحة نارية وحلي نساء. وكانت هنالك مساحة مخصصة لبيع الحيوانات من المواشي والدواجن. لم تكد الشمس ترتفع قليلاً حتى ضجّ المكان بأشكال مختلفة من البشر. أصخبهم وأكثرهم إزعاجهم كان الأطفال الذين لم أعلم ما الغرض من وجودهم في هذا المكان.

في زاوية بعيدة جلست امرأة تحضن طفلاً رضيعاً وأمامها بساط مصفوفة فوقه قبعات رجالية وأغطية نوم بدا أنها للأطفال نظراً إلى حجمها الصغير. اقتربت منها مدفوعاً بصوت خشخشة أسفل دماغي. كانت المرأة تغطّي صدرها العاري بغطاء رأسها بينما كانت ترضع وليدها، مع ذلك بدا جزء منه.

«تحياتي أيتها المرأة الكادحة».

ترفع رأسها وترمقني بنظرة متسائلة. من الواضح أنها لم تكن

تتوقع أن يخاطبها أحدهم بكلام غير ذلك المتعلّق بالبيع والشراء. فجاء ردّها بناء على ذلك.

«جميـع قبّعـات الرجـال هنا من صنع يديّ، اسـتخدمت لحياكتها أجود أنواع القماش والصوف وهي بأسعار مناسبة جداً».

«مـا تقوميـن بـه هو عمل نبيل يسـتحق الإكبار. هل لي أن أسـألك شيئاً؟».

أنهت المرأة إرضاع صغيرها وأرجعت ثديها بسرعة تحت ثوبها ثم وضعت الرضيع في مهد مرتجل مكوّن من أقمشة وضعت فوق بعضها البعض كيفما اتفق. نظرت نحوي بتركيز أكبر.

«ما الذي تريد السؤال عنه؟ ألا يعجبك شيء هنا؟».

لفـت نظـري التغضّنـات العديـدة تحت عينيها رغم سـنها الصغير نسـبياً «يـا أختـاه، ماذا يعنـي الصغار لك؟ لماذا تريـن أنه من الضروري إنجـاب الأطفـال؟ هـل هـو واجب اجتماعي؟ هل لأنـك إمرأة ترين أنه يجب أن تخضعي للرجل ورغباته؟ لماذا يقضّ مضجعنا وهم الخلود؟».

«مـا الـذي تقولـه أيها الرجل؟ إن لـم ترغب في الشـراء من فضلك تابع مسيرك ودعني أرعى رزقي».

«ليـس قبـل أن أقـول رأيي، وهو كالتالي. وُجد الإنسـان على ظهر هذه الأرض وحيداً، عارياً، جاهلاً، وخائفاً تهدّده الأخطار من كل حدب وصوب. ثم ارتأى أن في الجماعة خير وسعى إلى أن يجتمع مع أقرانه من البشر الذين خرجوا حديثاً من طبيعتهم الحيوانية لكي يتعاونوا على جمـع الطعـام وصيد الحيوانات لأكلها ولكي يتكاتفوا في دفع الشـرور عنهم. بعد أن أطفأوا شـهوة الجوع اشـتعلت فيهم غريزة الجنس وبدأوا

في التكاثر. ومع مرور الوقت ومع تحضّر بني البشر، تغيّرت النظرة إلى الشهوة الجنسية والرغبة في النسل. وتشكّلت بعد ذلك الأسرة ومن ثم المجمتع. أصبح الإنجاب من أجل توسيع القبيلة ومن أجل التفاخر. وعندما طغت العادات الاجتماعية والغيبية، دخل الزواج والإنجاب من ضمن الطقوس وأصبح لزاماً على الأجساد أن تتكاثر. ونحن نحب الأطفال لأنهم امتداد لنا، ولأننا نرى صورتنا منعكسة عليهم. وقد يكون حبنا لهم وخوفنا عليهم ورغبتنا في حمايتهم، قد يكون مبعثه شعورنا بالذنب، وإن كان لا شعورياً، لأننا جلبناهم إلى دنيا الشقاء».

كانت المرأة قد تلهّت عنّي بخدمة بعض الذين جاؤوا ليشتروا من بضاعتها، فرأيت أن أكمل مسيري، وأنا أقترب من شاب يعرض عدداً من النعاج السوداء للبيع، جعلت أفكّر في صراع الفرد للانعتاق من قبضة المجموعة. وقد يجد المرء نفسه وحيداً ومنبوذاً من خلال سعيه لتحقيق فردانيته والمطالبة بالاستقلال الفكري. ترى غالبية الناس تتبع بعضها بعضاً، لأنهم بذلك يشعرون بالأمن وبالانتماء والقبول.

«مرحباً أيها الشاب، تحياتي لك».

نظر نحوي في غرابة ثم أخذ يمدح نعاجه وطريقة تربيتها وعراقة منبتها كأنها خيول أصيلة.

«مهلك يا أخي، لست هنا شارياً بل جئتك محاوراً».

تقدّم الشاب أمام حيواناته كأنه يحميها من خطر محدّق.

«جئت محاوراً؟! وهل بيننا معرفة سابقة لكي أحاورك يا هذا؟».

«من خلال حديثنا عن تجاربنا الشخصية تأتي المعرفة. والآن أصدقني القول، هل ترى نفسك كبائع أغنام أم هو أمر مؤقت حتى

تحقّق مشاريع مستقبلية؟».

أخذ يقلّب نظره يمنة ويسرة بحثاً على ما يبدو عن مشترٍ محتمل. حين لم يبصر أحداً قال:

«أنا في الحقيقة أعمل كسائق سيارة أجرة، وإنما أقوم بهذا العمل في موسم السوق فقط كي أساعد أبي في بيع مواشيه».

«وهل قيادتك لسيارة الأجرة هو عملك النهائي أم أن هنالك عملاً آخر تطمح للقيام به؟».

بدأ الضيق يتسلّل إلى وجه الشاب.

«وما دخلك أنت فيما أقوم به في حياتي؟ هل تريد عرض وظيفة عليّ؟».

«كلاّ، ليست لديّ وظيفة لأعرضها عليك. كل ما أودّ تقديمه لك هو رؤيتي ورأيي في الموضوع. إسمع أيها الشاب. كثيرة هي الأمور التي تُفْرَض علينا في هذه الحياة، من المولد حتى الممات. بداية نحن لم نَخْتر أن نوجد ولم نختر والدينا أو موطننا. إذا ما هي الخيارات الأخرى التي يمكننا اتخاذها؟ يمكننا القول أنه بإمكاننا اختيار أسلوب حياتنا واعتقاداتنا والأشياء التي نودّ تعلمها وتلك التي نريد إظهارها للآخرين. لكن هنالك عوائق كثيرة من الضغط التي تمارسه السلطات الثلاث، الاجتماعية والدينية والسياسية، كي تشكّلنا على النحو الذي تريده. ونقضي حياتنا، نحن الراغبون في التحرّر، في صراع دائم مع هذه السلطات في سبيل بلوغ انعتاق تام لفردانيتنا ونخرج من شرنقة المجتمع لنحلّق أحراراً في أفق المعقول. لكن في أحيان كثيرة نضطر للإذعان وندفن قناعاتنا مؤقتاً حتى نعود لها لاحقاً. علينا فقط أن لا

نستسلم وننتظر حتى تتغير الظروف أو نغيّرها بأنفسنا».

كانت نظرة ذهول طاغية على ملامح الشاب. أطرق مفكّراً ثم قال:

«في كلامك الكثير من الصحّة. حياتي القاسية جعلتني أترك الدراسة كي أساعد أبي في المزرعة والقيام بأعمال أخرى. قد تجد ما أقوله صعب التصديق لكني في الأصل أردت أن أكون موسيقياً. في المدرسة كنت أعزف على البيانو الكهربائي وكنت أشارك في عزف النشيد الوطني في الطابور الصباحي. لكن.. لكن الظروف حالت دون أن أتابع شغفي في ظل مجتمع يحارب الفن وعدم وجود فرص للظهور. مع ذلك فإنني لازلت محافظاً على الحلم حيا بداخلي. حتى وإن لم أستطع تحقيقه سأظل أعيش على وهجه الدافئ».

غادرت الشاب وأنا أشعر بأنني قد أشعلت شمعة في روحه.

عند مخرج السوق وقف رجل أسمر البشرة بلحية طويلة، كانت أمامه طاولة كبيرة عليها مسابح خزفية وكتيبات صغيرة، يبدو أنها دينية، وعلب بلاستيكية كتب عليها ماءٌ مُبارك ومراهم وأعشاب متنوعة. لقد كانت تجارة بيع الأوهام في أجلّ صورها. أوهام خلقها الإنسان حينما وجد نفسه أمام عالم لا يفهمه وطبيعة متوحشة تريد إلحاق الأذى به. كان خائفاً ووحيداً. أراد أن يشعر بالأمن والطمأنينة حتى وإن كانا زائفين وذلك من أجل البقاء على قيد الحياة.

«السلام عليك يا أخي الكريم. تفضّل.. تفضّل، لديّ مسابح أصليّة مصنوعة من الكهرمان وكتيّبات من أجل سلامك الروحي ومياه مُزِجَت بقراءات من النصوص المقدسة والكثير من الأعشاب النافعة. تفضّل اختر ما يعجبك».

رفعت رأسي ونظرت في وجهه. لم أرَ ابتسامة أكثر خبثاً من تلك التي ألقاها علي.

«أرى إنـك تبيـع بضاعـة مزيّفة غيـر حقيقية. تدّعي أنها نافعة لكني أشكّ في ذلك. ربما هي نافعة لتغذية الوهم ليس إلاّ».

تغيّر الوجه البشوش فجأة إلى تقطيبة عدوانية، كتغيّر الجو المعتدل في وسط المحيط إلى إعصار هائج.

«مـا هـذا الـكلام الذي تقوله يا هـذا؟ أتتّهمني بالكذب؟ أليس من العيب أن تفتري عليّ وأنت لا تعرفني؟».

«لكنّـي أعرفـك جيـداً» أجبته «أعرف أمثالك وأعرف البضاعة التي تبيعونها. مع الأسـف إن حب السـيطرة والطمع هما من طبيعة البشـر، وغالباً ما يرى المرء أنه على صواب والآخرين على خطأ. وهكذا يستغل رجال الدين عواطف الشعوب وجهلهم لكي ينفثوا سمومهم ويتحكموا في البشر. أنتم الغبار الذي يغطّي على البشرية. أنتم الغشاوة على أعين الناس التي تمنعهم من رؤية الطريق الصحيح. لقد وصل الإنسـان إلى مرحلـة متقدّمـة مـن الحريـات والحقـوق المعاصرة ويبقـى الطغيان هو العقبة الوحيدة لكي تتعايش الإنسانية في سلام. والمعتقدات والخرافات والعادات الشعبية هي نوع من أنواع هذا الطغيان. ولهذا وجب كشفكم على حقيقتكم وتسمية الأشياء بمسمياتها ونزع القداسة عن هذه الأفكار العتيقة».

أربد وجهه وأصبح غائماً ينذر بالشر.

«ما هذا الكلام الذي تهذي به؟ من المؤكّد أن بك لوثة من الجنون. هل تطلب منا التخلّي عمّا ورثناه عن آبائنا وأجدادنا ونتّبع الحرية التي

تنادي بها؟ هل الحرية أن نرضى بالفواحش والركض وراء الشـهوات؟ لا نريد هذه الحضارة التي تهدم قيمنا الاجتماعية وعاداتنا التقليدية. لا نريد هذا النور إن كان يعني اتباع غيرنا».

رأيت أن حواري مع ذلك الرجل وصل إلى طريق مسدود فآثرت أن أواصـل مسـيري خـارج السـوق. تعجّبـت أن البعض يضفي قداسـة إضافيـة إلـى مـا هـو مقدّس. عدم الثقة في أنفسـهم والخوف من التغيير جعلهـم يتشـبثون بالموروثـات والعـادات الاجتماعية وهـو ما نراه جليا حين تقدّس عادة شعبية معيّنة كأنها طقس غيبي.

كانت رجلاي تسيران بلا حوْل مني بينما أفكاري تسرح بعيداً عن ملكـوت إرادتـي فاستسـلمت. في خارج السـوق رأيت أبـي واقفاً وعن يمينه رجلان يلبسان زيًّا أبيضاً وخلفهم سيارة كبيرة. لقد أصبحت خطراً علـى المجتمـع لـذا وجب إبعادي. أفكاري تعكّر صفو مزاجهم. أمّة بلا أفكار كيف لها ألاّ تخشى الأفكار؟

التحول إلى كافكا

(1)

تشبه حالتي هذه بتلك حين تعرّضت لحادث سيارة فظيع اضطررت على أثره للمكوث في المستشفى لمدّة ثلاثة أشهر بعد أن دخلت في غيبوبة. تشعر أن هنالك أصواتاً كثيرة تدور في رأسك، لكنك لا تسمعها. صخب صامت. يتسرّب أحياناً بعض الهمسات، أعلم أن هنالك شيئاً يقال لكن لا أستطيع تمييز الكلام. محاصر داخل عقلي، لا أقدر على تحريك جسدي، حتى أفكاري وتسيِّرني. أفقد مؤقتاً ذاكرتي ثم أستعيدها، ثم أفقدها ثانية. ينتابني شعور بالغثيان أبدي. أحياناً أشعر بالحقن تنغرس بألم حاقد في جلدي. وفي أوقات أستطيع تتبّع السائل المغذي من لحظة دخوله في مجرى دمي حتى توزّعه في أنحاء جسدي وشراييني. يأتي أناس لزيارتي، أرى أشكالهم الضبابية وأسمع كلامهم المشوش كقناة إذاعية رديئة الإرسال. قُبَل تنطبع على جبهتي. هل أنا متزوج؟ يا ترى كم عدد أفراد عائلتي؟ ومن هم أصدقائي؟ هل تتكرّر حالات فقدي للذاكرة كثيراً؟ ربما أصحو كل يوم ولا أتذكّر شيئاً حتى يخبرني أحدهم بقصّتي كلّها. وربما لا زلت في الغيبوبة الأولى ولم أصح منها بعد. عليّ أن أفعل شيئاً أولاً، عليّ أن أستيقظ.

الجو بارد جداً. أزيح الغطاء السميك من على جسدي ببطء. أشعر

بألم في كامل جسمي. كل هذه الأغطية والملابس الثقيلة ولازلت أشعر بالبرد. هل أنا مريض؟ الشمس تغمر المكان بأشعّة صفراء ذهبية. زقزقة العصافير تأتي من الخارج بدون توقّف. من المستحيل أن يكون هذا فصل الشتاء. جسمي المريض والمتعب هو السبب. الغرفة التي أنا فيها تبدو مألوفة، لونها وإيحاءتها كذلك، لكني لا أتعرف على الأثاث. لا أتذكر عنواني أو في أي مدينة يقع بيتي. هل أسكن مع عائلتي، من هم، أم بمفردي؟

أريد أن أشرب. هنالك دورق بجانب السرير، لكن لا يوجد كأس. الماء له طعم حلو. ربما كان دواء. أشعر برطوبة على الأرض، أتلمسها. تغطي الأرضية مادّة لزجة. لا توجد نافذة مكان النافذة. الصباح البارد كان جميلاً، لكن أين ذهب غناء العصافير؟ في الحديقة لم يكن هنالك زهور أو ورود، بل أعشاب وحشائش وأشجار ورقية قصيرة وصغيرة الحجم. أستدير، لا توجد أبواب أيضاً. قبل أن أخطو خطوة أخرى تحسسّت جسدي. ملابسي البيضاء تكوّنت من قميص طويل الكم وسروال قطني. لا أشعر أنني في جسدي، غريب على روحي. أمشي بصعوبة. أين ذهب الجميع؟ من هم هؤلاء الجميع؟

لا أتذكر أن طلاء غرفتي والمنزل كان أبيض هكذا. هل أستطيع الثقة في ذاكرتي الآن؟ ستقتلني هذه الأسئلة بداخلي. لا أستطيع وقفها، يجب أن أبحث عن أحد ليجيبني عنها وإلاّ سينفجر دماغي داخل رأسي. كنت أجد صعوبة في تحريك رجليّ كأنني أتعلم المشي لأول مرة. بدت المسافة بيني وبين الباب ستستغرق مني الأبدية كلّها. أين ذهبت جميع كتبي؟ مكان المكتبة الخشبية الكبيرة التي كنت أملكها كانت

هنالك طاولة صغيرة عليها كتاب واحد. زحفت نحوه. أشعر بحكّة في ظهري، أقاومها كي أصل للكتاب. كجلد متشقّق كان ملمس الكتاب، كذلك كان ظهري حين حككته. انحنيت بصعوبة بسبب التشقّقات في ظهري وأشياء أخرى بداخلي، كي ألتقط الكتاب. رسوم غريبة ورموز غامضة ملأت الكتاب. أخذته معي نحو الباب الذي لم يكن موجوداً.

في رواق أبيض هو الآخر وطويل مشيت. كان غريباً ومألوفاً في نفس الوقت. بمعنى أنني أتذكر وجود مثل ذلك الرواق في بيتي، أو مقر عملي، لكن ليس بهذا الشكل. ألتفت نحو الجدران العارية كأنني أرى صور ولوحات قد أزيلت. ترى ما سبب تلك التشققات؟ هل أجريت لي عملية ما؟ لم يكن هنالك مرآة لأعاينها. في مربع وهمي أثر لإطار صورة لربما لم تكن هناك، رأيت ذكرى. أخضر كان النهار والأرض تحاكيه، الشمس بيضاء لامبالية. لماذا البعض كان يركض؟ استندت إلى الجدار كي لا أسقط. كانت تنبعث منه رائحة قهوة وأحمر شفاه. لقد ثبتت عليّ التهمة، وصلني خطاب الطرد والاستدعاء إلى المحكمة في نفس الوقت. لماذا هذا الرواق بهذا الطول؟

وصلت إلى غرفة كبيرة في البيت، حجمها يدل على أنها صالة معيشة أو ما شابه. أشعر أنني لا أستطيع إبقاء جسمي منتصباً. كنت أحني ظهري كشيخ هرم. استمر اللون الأبيض في هذه الصالة أيضاً. كأن البيت كان على موعد لأن يُطْلى من جديد. ما هذا الشيء الذي مرّ من أمامي بسرعة؟ الغرفة الواسعة التي أنا فيها كانت خالية من الأثاث إلاّ من طاولة قهوة صغيرة في منتصفها. الطاولة خشبية بنّية اللون عليها ظرف رسالة أبيض. مشيت بتثاقل أجرّ قدماي كأنني مسخ في أحدى

قصص الرعب. فتحت الظرف وحاولت قراءة الرسالة التي كانت مكتوبة بخط رديء جداً. «كانت إرادة القصر أن نتحوّل جميعنا إلى حشرات. لقد تم حقننا بمواد جعلتنا نفقد طبيعتنا البشرية بسرعة. القليلون من أمثالك من الذين لم تتم عملية تحوّلهم بنجاح عليهم الذهاب إلى القصر ومقابلة الحشرة الأعظم وإلا ماتوا. هذه مشيئة القصر ولا يجب الاعتراض عليها». كان ذلك فقط محتوى الرسالة. لا يوجد توقيع عليها أو اسم كاتبها. ما هذا الهذيان؟ هل هذه مزحة ما؟ كيف يتحوّل الإنسان إلى حشرة، كيف يعقل هذا؟ وأين هذا القصر الذي يتحدثون عنه؟ وأين ذهب الجميع؟

لماذا كان يحاول الهرب في اليوم الذي تعرّض فيه للحادث؟ يتذكّر أنه مع صحب له كانوا يخرجون إلى الشوارع للتظاهر. الناس المسحوقة ومعظم الشعب كان يخرجون أيضاً. امتلأت الشوارع بالناس حتى أصبحوا كالدود في كثرة عددهم وتزاحمهم. ولكن لماذا كان يحاول الهرب؟

النهار كان صامتاً كالأموات. وقفت أمام الباب المؤدّي إلى الخارج متردداً ومتهّيباً مما قد أصادفه. سمعت وقع أقدام خلفي خفيفة كأن صاحبها كان بالكاد يطأ الأرض أو أنه كان يرتدي خفين من الصوف أو الفرو. في عزّ حالة التردّد والحيرة تلك لويت جسدي بكل صعوبة ومشقّة محرّكاً كل عضو على حدة، الرأس أولاً ثم الجذع الأعلى وأخيراً وسطي ورجلاي. لم يكن هناك من شيء ليجعلني أتحرك بسرعة حتى ولو قابلني شيطان الموت بنفسه حاملاً منجله المرعب في يده. لكن الشيء الذي رأيته أعطاني سبباً آخر لأتسمّر في مكاني، كالكلب في

الحجم ولكنه كان حشـرة؛ خليطاً من الخنفسـاء والصرصار. شكله شبه دائري، أسود اللون بالكامل بقرني استشعار وفكّين مسنّنين أسفل عينين كبيرتين. عدم شـعوري بالخوف أذهلني وزاد في الموقف غرابة. وقفنا فـي مقابلـة بعـض لفتـرة طويلة مـن دون أن نأتي بأي حركة، كأن كل منا ينتظر الآخر ليبدأ الحوار أو التواصل بأية طريقة. نعم لقد تلقيت اتصال مـن مصـدر أثـق بـه يحثني على مغـادرة البلد، فالنظـام كان يتربّص بي. احتجاز، محاكمة سريعة ومن ثم سجن أو حتى الإعدام. ما الذي فعلته يا ترى كي يعتبرني القصر بتلك الخطورة؟

يتحـرك فـكا الحشـرة الهائلـة ويخـرج صـوت خشخشـة كزقزقـة عصافير خافتة. لم أفهم ما يقوله الشيء ولكني سألت «من أنت؟.. هل بإمكانـك إخبـاري كيـف أصل إلـى القصر؟». حرّكت الحشـرة قوائمها الأماميـة التـي لـم ألحظهـا بـادئ الأمر وأشـارت إلى يـدي اليمنى التي كانت تحمل الكتاب. بحثت في الكتاب عن أي دليل. ما إن قلّبت بضع صفحات حتى رأيت صورة تشبه إبريق الماء وسهم من الدورق إلى فم حشرة وعليها رسم لنوتات موسيقية. ربما الماء الذي شربته سيساعدني فـي التفاهـم مع هذه الحشـرات. لكن مالـي لازلت أجهل ما يقال؟ هل يأخـذ الأمـر وقتـاً معّيناً حتى يبدأ مفعوله؟ تهاويت على الأرض منتظراً، فليس أمامي إلاّ الأبدية.

أبـي كان حازمـاً وشـديداً معـي منـذ الصغر. ولـم تـزده الحرب إلاّ حزمـاً وشـدّة. انسـحبت من الحياة مبكراً، صنعـت صدفة من إخفاقاتي وخيبـات أملـي والأحـلام التي تولد ميتة وخوفي من المسـتقبل والناس والفشل واختبأت فيها. كل قرار أتخذه كان خاطئاً في نظر أبي حتى قبل

أن أجرّبه على أرض الواقع. دائماً أعمالي ناقصة وتصرّفاتي غير مقبولة. حيـن كبـرت قـرّرت أن أحـارب فـي صـف المقهورين والمسـتضعفين أمثالـي. كتبـت مقـالات، انخرطـت فـي جماعات ناشـطة فـي الحقوق والحريات. اعتقلت، أسقطنا الملكية وجاءت حكومة أكثر تسلّطاً وبطشاً ترتدي لباس الجمهورية.

أحسسـت بوخز على خدّي، فاسـتيقظت. شعرت برغبة عارمة في الصراخ إذ كان رأس الحشرة المليء بالشعر المدبّب والعينين الكبيرتين والفكّين المرعبين فوق رأسي. لقد غفوت. ساعدني النوم في استرجاع قليـل مـن ذاكرتـي. «أف..قـق». هل تكلّمت الحشـرة فعـلاً أم أن عقلي المتعـب يتخيّـل ذلـك. كانت الحروف تضيع في صوت الصرصرة التي لا تتوقّـف. أظنّهـا قالـت أفـق. جاهدت كي أقف على رجلاي. تبدو لي هـذه الحشـرة مألوفـة؟ تـرى مـن هي؟ هـل هي أختـي أم أخي؟ كم من الأخـوة لـديّ؟ هـل هـي أمي؟ أنـا متأكد من أن أبي قد مـات. ولكن ما أدرانـي أننـي فـي بيتـي، قـد أكون في مـكان آخر. «من أنـت..؟». ظلّت الحشـرة صامتـة إلـى أن بـدأت في القول أو حاولت «أسسـرع فالوققت يداهمم.. ك». «ولكن كيف أصل إلى القصر؟ أين هي الطريق؟» سمعت صوتاً حاداً قادماً من خارج البيت، كصوت طائرة نفاثة. حرّكت الحشرة أرجلها الكثيرة ثم أشـارت إلى الكتاب تارة أخرى. دارت حول نفسـها ثم أسرعت مختفّية في إحدى الغرف الكثيرة للمنزل.

لم لا يزول هذا الألم؟ سحبت نفسي خارج البيت وشعور الغرابة يتعاظـم فـي داخلـي. امتدت مسـاحة خضـراء كبيرة على امتـداد البصر تكونت من أعشـاب وحشـائش. لم تكن هنالك أشـجار أو زهور، لكن

توزّعت أحراش كثيرة في كل زاوية بصورة غير منتظمة. كما كانت هنالك هضاب عديدة تحيط بالمكان مكوّنة طرقاً ومسالك كثيرة. لم أقدر أن أرى ما وراء هذه الهضاب بسبب علوّها، إذ يبدو أن البيت يقع في أرض منخفضة. إلى أين أتوجّه الآن؟ مشيت قليلاً ثم جلست على الأرض المعشبة. أخذت الكتاب وفتحت أول صفحة. هنالك أحرف متقطعة وأرقام. بعض الصفحات الفارغة ثم وصلت إلى ما يشبه الخريطة. كانت مرسومة بشكل سيّء للغاية. في أسفل الركن رُسِمَت ما يشبه فاكهة الكمثرى المقلوبة ثم خط إلى يمين الصفحة يصل إلى ما يشبه المثلّث ويربط هذا المثلّث خط آخر إلى شكل يشبه العين. ومن العين خط إلى الأعلى ينتهي إلى صليب مقلوب. استنتجت إلى أن الكمثرى قد ترمز إلى البيت بما أنها في بداية الخريطة ولأنه من الممكن أن ترمز إلى رحم المرأة وهو المكان الذي خرجت منه. أما الرسم التالي وهو المثلث فلعلّه يشير إلى معبد ما، لأن المثلث رمز مهم لكثير من الأديان. وبالنسبة للعين فأظنها مكان حاضن للفن، لأن الفن يرى كل شيء ويكشف عيوب الحياة والناس. والصليب المقلوب بما أنه الوجهة النهائية قد يرمز إلى القصر، لأن النظام قد استغل كل ثوابت ومعتقدات الناس وقلبها رأساً على عقب لخدمة مصالحه ولضمان السيطرة على العقول. قرّرت المجازفة واتباع الخريطة، فلم يكن لديّ خيار آخر. لا أدري أين أنا ولا أستطيع الذهاب بدون وجهة كالأعمى.

اقتربت من التلة التي تشير إليها الخريطة. رأيت برجاً يرتفع في السماء، لا يظهر إلا نصفه من خلف التلة. اقتربت أكثر. كانت الأرض مبتلة كأنها أمطرت منذ قليل. مشيت كأحد الموتى الأحياء وصعدت

التلّة مستعيناً بذراعيّ في كثير من الأحيان. لم يكن العشب مبتلاً وحسب بـل لزجـاً أيضـاً. أسـفل التلّة كانت هنالك مجموعـة من الأحراش ذات أشواك حادة كما دلت على ذلك جروحي العديدة.

البرج كان ملحقاً بمبنى حجري ضخم له باب خشبي كبير. كانت الغرفـة السـفلية التـي جمعتنا إسـمنتية لكنها بدت حجريـة أيضاً، رمادية حد الاكتئاب لكن أفكارنا ملأتها بألوان عديدة. ربيع سحبناه من قرونه وجعلنـاه طـوع أمرنـا. مـا الـذي حـدث؟ كان ذلك آخر لقـاء لنا. أتذكر ابتسامته العذبة قبل أن يأخذوه. أظلمت الغرفة الإسمنتية فجأة، وتحوّل اللون الرمادي إلى أسود.

رأيت درعاً أسـود يحرس الباب. لا لم يكن درع. لقد كان.. كان عنكبوتاً ضخماً. شـعيرات أرجله المنتصبة كانت كأسـهم محارب تنتظر الانطـلاق. مؤخّرتـه الضخمـة كانت تحتكّ بالجدار كأنها كانت ملتصقة بـه. نظـرت فـي عيونه الكثيرة التي بـدت وكأنها مغلقة. «كيف أصل إلى القصـر؟» كان كل مـا تمكّنـت مـن قولـه. لـم أرد أن أضيّـع المزيـد من الوقـت، فـلا أعـرف كـم تبقّى لي. تحرّك قليلاً فـي مكانه، حفر الأرض بقدميه الأماميتين ورفع رأسـه قليلاً محاولاً الكلام فيما يبدو. «أدخل.. الجـواب.. تسـس.. تحـت النجـووم..». ابتعـد عن الطريق مفسـحاً لي المرور. دفعت الباب الخشبي الثقيل وكدت أن أقع عند دخولي. أضاء الظلام عدد من الشموع، ومع ذلك بدت الظلمة هي الوحيدة التي تنتمي إلى ذاك المكان. كان المبنى عبارة عن قاعة كبيرة عالية السقف بها بابين في نهايتها ربما يؤديان إلى غرف مخفية. لم أنتبه إلى وجود صفوف من الكراسـي المتلاحمـة حتـى اصطدمـت بإحداها. في نهايـة القاعة يوجد

تجويـف كبيـر علـى طول الجدار عليه زخـارف كثيرة. كان التجويف أو المحـراب خاليـاً لكـن يبـدو أنـه كان يحوي تماثيـل وأيقونات كما يدل على ذلك المذبح المرتفع قليلاً عن الأرضية. هل أنا في معبد؟ ارتطم بحواف الكراسي الخشبية في طريقي نحو المذبح. جسمي ينزف. لكن ليس من جروحي الجديدة بل أشعر بالدم يسيل في ظهري من التشقّقات التي لا أعرف مصدرها.

أثناء تشـبّثي بأحد الكراسـي كي أمنع نفسـي من السـقوط دخلت أحـد القطـع الخشـبية أسـفل ظفـري. كان الألـم لا يطـاق لدرجـة أنني صرخـت بأعلـى مـا يمكننـي من قـوة. تعالـى صدى صوتي فـي أرجاء المبنى الفسـيح واسـتمر لبعض الوقت حتى حسـبت أنّ أحداً غيري كان يصـرخ. كنـا نتجـادل في شـكل الدولـة. كيف لها أن تتحـوّل من ملكية إلـى ديمقراطيـة مـن غير أن يؤثر هـذا التحول على ثوابت الأمة. واتفقنا أن التغيير ينبع من الشعب قبل كل شيء. يجب أن يكون هنالك وعي بأهميـة الديمقراطيـة في قواعدها الأسـاسـية من حفـظ الحقوق واحترام القانون والحريات العامة وحرية التعبير. والتعليم هو الحل. يجب البدء بالتعليم ومنذ المراحل الأولى وتربية النشئ على الإستقلالية في الرأي وأخـذ زمـام المبـادرة. تجرّأ هو على كتابة أفكاره فأخذوه أولاً. ما الذي دعاني لسلوك ذلك المسلك؟

كانـت يغطـي المذبـح غبار كثيف. بحثت بين الزخارف والرسـوم فلـم أجـد النجـوم. كانـت هنالك سـحب بيضاء وشـمس ذهبية بأشـعّة تختـرق السـديم وملائكـة تطيـر. جلسـت لأرتاح قليلاً. أرخيت رأسـي علـى صـدري وجعلـت أنظر إلى بقع الدماء على قميصي الأبيض. نقط

متفرقة وتقريباً بنفس الحجم. إلهي! إنها على شكل نجوم. نظرت إلى الأسفل أكثر. نفضت الأرضية الخشبية من التراب وعثرت على مقبض صدء. سحبته وإذا به يسحب معه قطعة الخشب التي تحته كأنه درج. كان يحوي المخبأ على ورقة قديمة جداً. أحسست أنه يجب عليّ أن آخذها معي. متجاهلاً الدم وضعت الورقة في جيب سروالي.

كان المعبد الذي اعتدت ارتياده أصغر من هذا لكنه أوقع في نفسي المهابة نفسها. الوجوه كانت تتشابه أيضاً. تضرّع وخشوع في الخارج ونفاق في الداخل. لطالما كان إيماني متذبذباً، وحتى وأنا في قمة ورعي وتمسّكي بالدين كانت تملؤني الشّكوك. كان يرد على المتناقضات بغموض غيبي مما زاد من الأمر تعقيداً. كنت أبحر وحيداً في مسلك الفكر هذا. إلى أن قرأت أكثر. بحثت أكثر. ازدادت معارفي أكثر. فكّرت أكثر. هل نفس العقل البشري الجبّار القادر على اختراع العجائب والوصول إلى أقاصي الكون، يكون مغيّباً تعشعش فيه الخرافة لآلاف السنين؟

لم يكن العنكبوت موجوداً حين خرجت. المكان بدأ يظلم قليلاً. يجب أن أصل إلى العين. ألا توجد طريقة تؤدّي إلى القصر مباشرة؟ كان الدين إحدى مواضيع نقاشاتنا. دوره في تكبيل الحريات ومساهمته في التراجع الفكري والعلمي في مجتمعاتنا. والعلمانية التي هي القاعدة الأساسية لفكرنا التحرري لا تسعى إلى إقصاء الدين بل وضعه في مكانه الصحيح، علاقة بين الإنسان وربه أو ما يعتقد به. وكنت أنا أكتب في الدين كثيراً حتى تم اعتقالي وتوجيه تهمة الإساءة إلى المقدسات ومحاولة زعزعة المعتقدات إليّ، مما يدل كم هو واه

مـا يدعـون إليـه. بعـد ذلك تمّت مقاطعتي من كثيـر من الناس من بينهم أقاربي وبعض أصدقائي. وهذا ما يبيّن ازدهار الخرافة في المجتمعات الفقيرة والمتأخرة فكرياً وعلمياً.

شعرت ببعض الجوع وأنا أحدّق في الامتداد الأخضر من حولي. وصلت إلى منطقة بها عشب جاف. جلست عليه لألتقط أنفاسي. عاينت جروحـي المتوزّعـة علـى جسـدي. بعضهـا كان قـد أندمل مكوّنـاً بقعاً بنفسجية وندوباً متعرجة. بعضها لا تزال حارّة لكنها لم تكن تنزف دماً. بل قيح غريب اللون، أبيض مائل إلى اللون البني. تحسّست التشقّقات علـى ظهـري. كانـت متقوّسـة ومتصلّبة تصلّب لا يحـدث للجلد عادة. صعدت إلى أنفي رائحة العشب فذكّرني ذلك بجوعي. أخذت حفنة من العشب وقمت بمضغها وأنا مغمض العينين استعداداً للشعور بالغثيان. لكن ذلك لم يحدث. لقد أعجبني طعم العشب فأكلت المزيد. شعرت بجسدي أكثر وعرفت طريقة للتحكّم به بصورة أفضل.

عرفت أن شيئاً ليس على ما يرام حين بدأت تصرفاتها تغيّر اتجاهي. لقـد قالـت إنها تتفهم كفاحي ونشـاطي الفكـري. لكن بعد الحبس تغير رأيهـا كليـاً. لقـد رضخت على ما يبدو للضغوطات التي مارسـها عليها أهلها. فمن يرضى أن يقترن بسفير الشيطان كما صرت أدعى؟ لقد كانت لديها أفكار تحرّرية وروح منطلقة وهو ما جعلني أتمسّك بها. لكنها في النهايـة إمـرأة فـي مجتمـع تقليدي ومن عائلة محافظـة. وعلى كل حال ربما كان ذلك للأفضل، بما أن الارتباط بشـخص رسـمياً سـيعيق عملي ويستهلك الكثير من وقتي. لماذا لا أستطيع تذكر اسمها؟

أنـا أعـرف إلـى أيـن أريـد الذهـاب، لكنني لا أعلـم أي الطـرق

أسـلك. تبعت طريقاً تحدّه أحراش كثيفة من الجانبين كأنها غابة قزمة. ظلال غريبة الشـكل كانت تلعب على الطريق. كيف للظلال أن تتكوّن والشـمس ليسـت ظاهرة؟ أسـمع همهمات وحسـيس وأصوات سحيقة قادمة من الأحراش. لم أشعر بالخوف. تابعت مسيري مقاوماً فضولي. لم أكن أؤمن بالكائنات الخرافية. حتى تلك القصص التي كنت أسمعها مـن جدتـي فـي صغري حين نكون فـي الريف، تختفي تماماً حين يطلع النهار. تلك الليلة سمعت صوت خافتاً قادماً من الوادي السحيق الذي يطـل عليـه بيـت جدتي. وكانت جدّتي حكت لنـا عن قصّة الغول الذي يلتهـم الأطفـال. حيـن سـألت لمـاذا الأطفـال بالـذات، أجابـت جدتي بصوتهـا العتيـق لأن لحمهـم طـري وعظامهم هشـة. لم أسـتطع النوم، يوقظني الصوت المتكرر. الصوت في حدّ ذاته ليس مرعباً، لكن تكراره وانتظامه واللحظات المباغتة التي يصدر فيها جعلت شعر ذراعي يقف. أرتأيـت أن أتحقـق مـن الأمـر رغم خوفي من الظلمـة وهلعي المؤقت. فـي القريـة كان النـاس ينامون مبكراً حين كنت صغيراً. تطفئ الأضوات القليلـة أصـلاً وأشـعر أنـا بوحشـة كبيرة لأنني لم أتعوّد النـوم في تلك السـاعة. حتـى المجـلات المصـورة لـم تكن لتؤنسـني. تلـك الليلة لم تكن اسـتثناءاً، بل شـعرت بأن الظلام كان أكثر حلكة. خارج البيت كان هنالك درج طيني يؤدّي إلى الوادي حيث من أسفله يأتي الصوت. حين أصبحت أسـتعيد الموقف لاحقاً، كنت أتعجب من شـجاعتي الطارئة. انتقلـت مـن ظـلام إلى ظـلام وقلبي الخافق بقوة يـردّد صدى الصوت. لـم يكـن يبـدو الصوت لوحش يأكل الأطفال. كان ناعماً وخافتاً وبريئاً. زادت حدة الصوت حين وصلت إلى زريبة الأغنام المتكوّنة من طابوق

مرصوص فوق بعضه ومسقوف بألواح خشبية. باب الزريبة الحديدي كان صغيراً ملتصقاً بالطابوق عن طريق الأسمنت. أعلى الباب من جهة اليمين وجدتها. قطّة صغيرة انحشرت رجلها بين الباب والجدار الطابوقي وكانت تموء مستغيثة.

شيء يتحرك بين الأحراش بسرعة. توقفت لأرى عمّا يسفر عنه الأمر. أخرج رأسه أولاً ثم بعد ذلك ظهر كامل جسده. أفعوان غريب الشكل. كان قطر جسمه كبير كأنه أفعى الأنكوندا لكنه كان قصير جداً. جلده يميل إلى البياض مشوب بلون زهري. رأسه لم يدل كذلك على أنه ثعبان. «ماذا تكون أنت؟» قلت وأنا في سكوني. فتح فمه ولم يكن به لسان «أنا دودة الأرض». الآن يبدو الأمر منطقياً. لم أدرِ ما أقول وظللت واقفاً كالتمثال. أما هو فأخذ يتمرّغ في الأرض الموحلة. لم أستطع قراءة وجهه الذي كان خالياً من التعابير. «هل أنت تائه؟» هززت رأسي بنعم. كيف بإمكانه التكلّم بطلاقة ووضوح. «تريد الوصول إلى القصر على ما أظن؟» تابعت هز رأسي. «عليك العبور من خلال مسرح الفن أولاً.. إتبعني سأدلّك على الطريق».

لماذا تبدو المسالك كلّها بلا نهاية. «كيف لك أن تتكلم بهذه الطلاقة في حين أن كل من صادفتهم كانوا يواجهون صعوبة في التحدّث؟» سألته بعد أن أصابني الملل من طول المسير. «أنا نموي مكتمل» أجاب من دون أن يتوقّف عن الزحف. بعد ذلك أضاف «ومن ثمّ فأنا لديّ وظيفة خاصة». عند انتهاء الأحراش صعدنا تلة جرداء. حين استوينا على القمة ظهر في الأسفل مبنى جميل التصميم به انحناءات كثيرة كأنه موجة بحرية كبيرة. وعلى حين غرّة سألتني الدودة، لم يكن

هنالك من مجال للتعرف على جنسه، «عليك أن تفكّر في نوع الحشرة التـي تريـد التحـوّل إليهـا». لـم أعرف بماذا أردّ عليه. نوع الحشـرة التي تعجبنـي! كنـت قـرأت عن نوع من الدبابير السـامّة التي بإمكانها القضاء على إنسان بالغ بلسعة واحدة. لكن لماذا أريد تلك القوة المميتة؟ «ذلك هو مسرح الفن» وقبل أن أنزل أضاف «حافظ على كل ما تعثر عليه».

أثناء نزولي متجهاً نحو مسـرح الفن أخذت أفكّر في هذا الوضع العجيـب. هـل هـذا حلم؟ إذ لا يوجد شـيء منطقي فيه. كيف للإنسـان أن يتحـوّل إلـى كائـن آخـر؟ وكيـف تتحـوّل أعضـاؤه الداخليـة وعقله وجوارحـه؟ ولمـاذا حشـرة بالـذات؟ عند الخاطر الأخيـر تذكرت قصة كافكا «المسـخ» حيث يسـتقظ فيها بطل القصة ذات صباح ليجد نفسـه وقد تحول إلى حشرة عملاقة. جريجور، وذلك اسم الشخصية، شاب مسـكين مكافـح فـي الحياة تعتمد عليه عائلتـه في إعالتها. وحيد يقضي معظم وقته في سـفر متنقّلاً من مدينة إلى أخرى كجزء من عمله كبائع متنقـل. قـد تكون القصة انعكاسـاً لحياة مؤلفهـا الذي عاش في ظروف مشابهة. تكافئنا الأقدار بظروف غامضة لا يمكن تفسيرها ويحكم علينا صدقنا بالضياع في ذواتنا فلا نملك لحياتنا تفسيراً.

نعم، سأتحوّل إلى حشرة كافكا. فهي الحشرة الوحيدة التي تعني شـيئاً لي. هي الحشـرة الوحيدة التي تحمل معنى فنياً وثقافياً. وهي رمز لكفاحنـا المسـتمر مـع الحيـاة. أظنهـا كانت أشـبه بالخنفسـاء. وبعض الشـعوب قد قدّسـتها واتخذتها أيقونة تعبّر عن العظمة والسـمو مثل ما فعل الفراعنة مع خنفسـاء الجعران. هوسـنا بمقارنة أنفسـنا بمن حولنا يجعلنا نندهش من الأشياء الصغيرة مثل ما نعجب من الأشياء العظيمة

والكبيرة. فحشرة صغيرة تساوي الكون بأكمله.

فـي منتصـف الطريـق إلـى مسـرح الفـن كانت الأرضيـة مرصوفة بقرميد أحمر. كانت تشـعّ من المبنى الجميل ألوان زاهية كأنها تصدر من جوهر المادة المصنوع منها المبنى. كل شيء حول المكان يدل على البهجـة والألـق والرقـي. أليـس من الأولى أن يصلّي الناس في مسـارح الفـن هـذه؟ صـلاة محبّة وتسـامح ليس فيها كراهيـة أو دعوة للموت أو تخويف بعذاب أبدي؟

بوّابة المبنى مصنوعة من زجاج كريستالي شفاف. كنت أظن أنه لا يوجد أحد في المكان حتى سمعت رفرفة خفيفة كهمس الزهور لبعضها. تجسّدت أمامي لوحة جميلة جداً، فراشة متعدّدة الألوان. حين تكلّمت كان يصـدر ممزوجـاً مـع صوتها لحن موسـيقي. «ها، قـد وصلت. لقد كنت بانتظارك». سـكن اضطرابي حين سـمعت صوتها الحاني والرقيق. فتحـت فمـي لكـي أتكلم لكنني أخذت في البـكاء عوضاً عن ذلك. «لا عليك، أدخل من الباب الزجاجي وستجد طريقك إلى القصر». لم أكن أود مغادرة الفراشـة فكلامها الموسـيقي يجلب إلى روحي السلام. «في الداخل إبحث عن المزمار الذهبي. ستجده عند إلتقاء الحقيقة المنبوذة بالخديعة المطلقة. هيا أسرع فأنت لا تملك الكثير من الوقت».

فـي الداخـل كان عالـم آخر. الجدران عبارة عن لوحات فنية عالية المستوى. تخرج من كل زاوية منحوتة تثير في النفس الدهشة والأعمدة نفسها مصممة بطريقة فنية رائعة. يبدو أن هذا هو المكان الوحيد الذي لم تطله يد التغيير والعبث. لو كان بيدي الأمر لاتخذت من هذا المكان مسكناً. وقفت في وسط القاعة الكبيرة مفكراً في الوجهة التي سأتخذها.

أدرت رأسي حول المكان الذي كان يشبه المتحف بمقطوعاته وتجلياته الفنية العديدة. رغم أن المبنى يبدو كبيراً من الخارج إلا أنه يحتوي على طابق واحد. لا توجد سلالم ظاهرة ولا أبواب أيضاً. هل هنالك طابق تحت الأرض؟ زحفت من شدّة تعبي حتى وصلت إلى نهاية المكان. الجدار بأكمله مغطّى بلوحة مرسومة عليه بلا وساطة. مر وقت طويل بينما كنت أحدّق في كل جزيئة من جزيئات اللوحة على حدة. كانت مقسمة إلى قسمين. القسم الأول وصلت إلى استنتاج أنه يمثّل قصة الإنسان من بدء الخليقة إلى آخر مبعوث من السماء (كما يدعى). والقسم الثاني يصوّر أعظم رجال الفكر والعلم في لحظة وصولهم إلى اكتشافاتهم واختراعاتهم. وكأن وضعهم في مقابل بعض يدل على الصراع الدائم بين العلم والخرافة. في الحد الفاصل بين القسمين من جهة الدين يوجد كتاب يبدو أنه أحد الكتب المقدسة، وفي الجهة الأخرى رسمة يبدو كأنه يصوّر العقل ومن تحته قلم كتابة.

«إبحث عن المزمار الذهبي.. عند التقاء الحقيقة المنبوذة بالخديعة المطلقة..». شعرت بأن دهراً مضى عليّ منذ لقائي بالفراشة. أرى أمامي الخديعة التي لا تنتهي والحقيقة التي يدير لها معظم البشر ظهورهم. لكن أين يلتقيان؟ اقتربت أكثر من اللوحة. اقتربت في ذلك اليوم من حذائها الأحمر، رمز الوهم. ظننت في عز حماقتها الأنثوية أنني أتحرش بها. أخذتها الشركة حجّة لفصلي. هناك شرخ صغير في وسط اللوحة عند التقاء النقيضين. وضعت أصبعي، فانشق الجدار عن حجرة سرية.

كانت غرفة صماء. خالية من الزخارف والزينة. جليلة بسكونها الأبيض. في آخر الغرفة كان هنالك باب، أبيض أيضاً، لكن بجانبه شيء

يلتمع بصورة شـاذة عن محيط العتمة البيضاء. عبرت الكفن السـرمدي بلهفـة ودرجـة أنحـاء جسـدي قـد ازدادت. سـحبت الشـيء اللامع من الجدار وإذا به مزمار ذهبي متألق في لمعانه الأصفر. خرجت من الباب وانتابتني رغبة شديدة بالغثيان ما إن أصبحت في الخارج.

كان متربعّاً على أعلى تلّة في المكان. رماديّ كوجه شيطان، يعلوه غطاء أسود كأدخنة الجحيم. كنت أجاهد كي أبقي ظهري منتصباً وهو الأمر الذي أضاف إلى معاناة صعود التل معاناة أخرى. الكتاب أسـفل حـزام صـدري والورقـة فـي جيـب بنطالـي، أمـا المزمـار فأطبقت عليه بأسناني لأنني كنت أستعين بيدي في الصعود. عليّ أن أصل إلى القصر مهمـا كلّفنـي الأمـر. إنهـا الطريقة الوحيدة كي أخـرج من متاهة الوجود هذه. إنها الطريقة الوحيدة التي أكسر بها دائرة الحياة العبثية.

لـم يبـد أن هنالـك بابـاً يـؤدي إلـى القصـر. كل مـا كنـت أراه هو جدران رمادية تتطاول إلى السـماء. بدأت أنزف من ظهري بشـدة، دماً بني اللون ولزج الملمس. شعرت أيضاً أن أضلع صدري تتقلص، كأنها تسـحق من الداخل. خرجت من جوانبي شـعيرات قصبيّة صلبة. كنت أتمنى بصدق لو أسـتطيع التقيؤ لأن درجة الغثيان في داخلي لا تطاق. بكيت وبكيت على بؤس حالي. ليتني أموت الآن. ركضت بسرعة نحو الجدار كي أسحق رأسي. سقط من فمي المزمار. لكن قبل أن يصطدم رأسي بالجدار القاسي، نبت جناحان صغيران، لكنهما قويان، من مكان التشـققات فـي ظهـري. التقطت المزمار قبـل أن أعلو في الجو. طيراني علـى ذلـك النحـو كان من أشـد العمليات ألماً فـي حياتي، كأن أطرافي ربطت في أرجل أحصنة وكل حصان يجري في اتجاه مختلف. هبطت

على ممر علوي من القصر مكشوف للسماء. ما الفائدة من سعيي ذاك؟ لـم لا أمـوت الآن لينتهـي عذابـي كلـه؟ لـم لا أجلس فـي زاوية لأنتظر منجـل المـوت ليحصـد روحي؟ ما إن لامسـت الأرضية الكئيبة الباردة حتى رحت في إغماءة عميقة.

(2)

في زنزانتي انتحيت ركناً قصياً وجلست متكوّماً على نفسي. كانت تلك أول مرة أدخل فيها السجن. حزني لم يكن ناتجاً عن فقدي حريتي. نظـرات أبـي دمّـرت معنوياتـي كمـا لم تفعـل الدعايـة الحكومية وقول بعـض المغرضيـن والمنتفعيـن والانتهازييـن. نظرة أبـي وهم يقتادوني إلى الحبس سـاوتني بالمجرمين والقتلة واللصوص. كانت تقول أنه لا يوجد فرق بيني وبين المجرم الذي يغتصب طفلة صغيرة أو الذي يقتل إمـرأة لا حـول لهـا. مـا فائـدة العمل الذي أقوم بـه إن كان لا يحمل أي معنـى لأولئـك المقرّبيـن مني؟ ولكني أعلم في قرارة نفسـي أن كفاحي هـذا لفائـدة أعـم وهدف أنبل، لذلك أستمر فيه رغم المخاطر. لم يكن يريد سجّاني معرفة أسماء رفاقي أو أماكن لقاءاتنا أو أي من المعلومات المعهودة عن التنظيمات السرية. كل ما كانوا يحاولوا القيام به هو كسر روحـي وتحطيـم معنوياتـي كـي لا أعـود للقيام بنشـاطاتي مجدداً حين أخرج. كأنهم كانوا يحاولون خلق نمط واحد لنموذج المواطن. نسخة مكررة لجميع الشعب كي يسهل تطويعهم. يأتي المحقق الذي لا أرى وجهه بسـبب الظلمة ويسـألني أسـئلة غريبة عن طفولتي. والأغرب من ذلـك أن نفـس الأسـئلة تعـاد كل يـوم. في موعد النوم يشـغلون النشـيد

الوطنـي بصـوت عال. وفـي الصباح أقوم على صوت الملك وهو يلقي أحـد خطبـه. لقائـي مع محاميّ المزعوم كان أشـبه بالتحقيق، أو تحقيق مخفّـف. كل مـا يقـوم به هو التأكيد علـى ضرورة تعاوني مع المحققين والإجابة على جميع أسـئلتهم. السـجناء السياسـيون ومعتقلو الرأي لا يرون النور. ولا يسجنون سوية أو مع أي أحد. وحيدون، كل في زنزانته يخاطب الجدران القبيحة من حوله أو أناساً غير مرئيين. لدينا كل الوقت لنحيا حياتنا من جديد. نعيد الشريط لنعيش ذكرى مختارة ونستأنس بها. والشـقي ذاك الذي لا يحمل إلا ذكريات حزينة سـوداء. وأحياناً نعيش حياة لم نحياها بعد. المستقبل بغموضه هو الوجهة الوحيدة أمامنا.

خرجت في يوم شـتائي رمادي كئيب. كانت السـماء تشـبه جدران الزنزانـة لكنهـا أرحـب. لـم أرغب في رؤية أحد. لذلـك أزعجني تدفق «المهنئين» لخروجي من السجن من الأصدقاء والأقارب. بسبب الرقابة التـي فرضـت علينـا، لـم ألتـقِ برفقائـي إلا في مناسـبات معـدودة وفي أماكـن عامـة. والغريـب أنهم بعد مضي سـنة على الاعتقـال بدأوا فجأة فـي الاختفـاء مـن دون أن يتركـوا أي أثر. حتـى النظام أنكر احتجازهم. دخلـت فـي دوامـة حادة من الاكتئـاب. كل الأصوات المناديـة بالتغيير قد أُخْرِست، والتجمعات والاحتجاجات تم وأدها. وقتي معظمه كنت أقضيه في البيت، أحبس نفسي في غرفتي. أعيد قراءة كتبي السابقة توفيراً للنقود. لم أبحث عن عمل آخر. وسبّب ذلك امتعاضاً لأبي الذي رأى حالتي العاطلة أسـوأ من قضية دخولي السـجن. وكان لا يفوّت مناسـبة إلا ويلقي عليّ محاضرة صاخبة مذكراً أياي بفشـلي وضياع مسـتقبلي. لـن أحصـل بعـد ذلك على وظيفة جيدة. ولن أتـزوج من عائلة محترمة

وذات نسب بسبب سمعتي. الكل كان أفضل مني طالما عندهم مال. كنت أهوي عميقاً في تلك الدوامة حتى فكرت جدياً في الانتحار.

ألقى على حضني ورقة وركض خارجاً. كنت في ذلك اليوم قررت الخروج مستفيداً من نداوة الجو. أخذت كتاباً ومشيت طويلاً على الأرض المغبرة في غير وجهة معيّنة. الناس من حولي تعلو وجوههم نظرة ذاهلة. كأن مصاعب الحياة قد سرقتهم من أنفسهم حتى أصبحوا لا يتعرّفون عليها. دخلت أرخص مقهى صادفته وشربت قهوة بالحليب غاية في الرداءة. لم أعد أهتم بمن يتبعني أو من يراقبني. ولا كنت أهتم لو كنت سأعتقل مرة أخرى. في الحقيقة كنت راغباً في ذلك. كنت أتمنى لو أسجن لفترة طويلة إلى أن يتغير الوضع من حولي. لم يحاول أن يخفي نفسه، بل على العكس كان يستميت كي يجذب انتباهي. جلست أنا وأجبرت نفسي على شرب القهوة السيئة وأخذت أقرأ حتى نسيت وجوده. بعد مضي وقت طويل، بدا أنه يأس من استمالتي، قام وألقى بورقة في حضني بصورة مضحكة وخرج من المقهى. كنت أنا الآخر على وشك المغادرة فقد تعبت من القراءة وشعور بالغثيان يتنامى في داخلي بسبب القهوة الرخصية وتلوث الجو. فتحت الورقة المطويّة وقرأت ما فيها. كانت تقول اتبعني إن كنت تريد أخباراً عن رفاقك. قررت اللحاق به فلم يكن لديّ ما أفعله غير ذلك.

أسكن في حي يجمع بعشوائية بين القدم، من غير كلاسيكية، وبين الحداثة، في قلب مدينة العاصمة المكتظّة. كان البيت يعود إلى جدّي الذي جاء إلى هنا ليعمل واستوطن المدينة قبل النهضة العمرانية. ثم ورثه أبي عن جدي ولم يبرح المكان. يبدو البيت عتيقاً لا يناسب

المباني الحديثة من حوله. البيت يساوي ثروة بسبب موقعه لكن أبي لم يفكر يوماً في بيعه. والغريب أنه لم يأت أحد ليعرض عليه شراءه، ربما لكان أقنع السعر أبي وباعه. الزحام الشديد واكتظاظ الناس كأنهم يسيروا فوق بعضهم البعض والإزعاج المتواصل جعلني أكره المدينة، رغم أن البحر كان على بعد دقائق معدودة. تعمّد المشي ببطء كي أستطيع اللحاق به. رغم السيل البشري الجارف الذي كان يسحبني في الاتجاه المعاكس، لم يغب معطفه الأسود عن ناظري لحظة واحدة. دخل أزقة لم أدخلها من قبل في حياتي وسلك طرق كانت جديدة عليّ، حتى ظننت أنني أصبحت في مدينة أخرى. في الساحة الكبيرة أمام مقر النظام توقّف خلف عمود إنارة وأشعل سيجارة. يعتبر المبنى الضخم للحزب والقلعة القديمة المتربعة فوق جبل صغير من أهم معالم المدينة. لقد تمّ إقفال القلعة بعد أن شهدت حالات انتحار عديدة، إذ كان يذهب إليها الراغب في قتل نفسه ويلقي بنفسه في البحر. أشار عليَّ بالاقتراب. عرض عليَّ سيجارة وقبلتها رغم اني أقلعت رغماً عني بسبب ضائقتي المالية. وقفنا صامتين لبرهة نتناوب في نفث سحابات من الأدخنة.

«أقدّر ما تفعلونه أنت ورفاقك» بدأ حديثه. «لكن إن أردت رأيي، أعتقد أن المشكلة لا تكمن في النظام السياسي» أكمل كلامه بعد أن أشعل سيجارة أخرى ورفضت أنا عرضه المتجدّد. حافظت على صمتي، ليس خوفاً أن يستدرجني في الحديث فلقد قلت كل ما أردت قوله في التحقيق، ولكني استمتعت بلعب دور التلميذ الذي لا يعرف شيئاً. «المشكلة هي الناس، المنظومة الاجتماعية وعاداتها البالية

ومعاداتها للتجديد». لا أدري لماذا لا أستطيع تذكّر وجهه رغم أني التقيته عدّة مرات بعد ذلك. سألته من هو وماذا يريد. تجاهل الشق الأول وأجاب عن الثاني بكلمتين فقط «أريد المساعدة». قبل أن أساله عن السبب قال «لقد أخذوا أخي أيضاً» ثم أضاف من خلف سحابة بيضاء وهو يشير إلى القلعة «الإجابة تكمن هناك».

لقد بدت القلعة من موقعها العالي ذاك مخيفة ومرعبة. لم نتعرّض للتعذيب الجسدي أثناء احتجازنا في السجون الرسمية. لكن حين أشار إليها الرجل طافت في ذهني أشكال قاسية من التعذيب. «دعنا نلتقي هنا في نفس هذا الوقت بعد يومين». أضاف وهو ينسحب مبتعداً «أخشى أن أكون مراقباً». بقيت أنا في مكاني لبعض الوقت. أفكّر في غرابة هذا اللقاء. لم أكن راغباً في العودة إلى البيت. أخذتني رجلاي إلى الشاطئ. السيجارة التي دخّنتها جعلتني أحنّ شوقاً إلى التدخين. تذكّرت العرض الذي قدّمه لي أحد الأصدقاء بالكتابة للجريدة. عمل لا يتطلب منّي الذهاب إلى أي مكان ولا مقابلة أي أحد ولا الاستماع إلى ترهات أي آدمي. لا يمكن أن أبقى دون مال هكذا. ماذا لو أهاجر إلى بلد آخر. مبتعد عن كل هذه الضوضاء إلى أن يتسنّى لي أن أصفّي ذهني وأجمع شتات أفكاري. شعرت بالتعب فلم أكمل طريقي إلى الشاطئ. جلست على الجرف الصخري الذي يفصلني عن الرمال الذهبية والقلعة المهيبة تطل عليّ من الأعلى بكل تسلّط. من بين الصخور المبتلّة شقّت خنفساء سوداء اللون طريقها. رذاذ البحر كان يصل إليّ، وضوء النهار كان يخبو شيئاً فشيئاً. تصعد الخنفساء صخرة. ماذا لو ساعدتها في الصعود؟ كلا، يجب ألاّ أتدخل في عمل الطبيعة. لم لا تستخدم جناحيها وتطير إلى

وجهتها؟ تصل إلى قمة الصخرة. تتوقّف جامدة في مكانها وكأنها تراقب البحر أو تحدد وجهتها التالية. لونها الأسود اللامع ذكّرني بتلك الليلة معها. سارة. لقد أحببتها بصدق. لم أشعر بذلك الحب في علاقاتي الأخرى. لكنها ذهبت كليلة حالمة. تابعت الخنفساء طريقها واختفت عن ناظري. في تلك الأثناء سمعت صرخة سحيقة قادمة من الأعلى من ناحية القلعة. أحقاً سمعتها أم أنني أتوهّم؟

رجعت قبل هبوط الليل بقليل. لماذا أتجنب لقاء الناس وخاصة أبي؟ وهل حقاً فعلت ما يستحق الخجل من أجله؟ وحتى ولو كنت على خطأ والحكومة هي المحقّة، ألا يحسب لي أنني كنت أسعى لصلاح وتقدّم البلاد وأهلها؟ لماذا يحكم عليّ على أساس معتقداتي وأفكاري الشخصية؟ وهل سنصل إلى تلك المرحلة حيث ننظر إلى الفكرة والفعل بغض النظر عن صاحبها؟

في نهاية الجدار الشرقي المقابل للبحر خرجت إمرأة من باب لا يرى. بدت كأنها شبح في لباسها الأسود وسرعة مشيها بل هرولتها، وعزز المشهد السريالي خفوت الإضاءة والضباب الخريفي المنبعث من البحر كأنه أنفاس وحش أسطوري. لم يكن بي حيلة لألحق بها، فالتعب بروحي كان عظيماً. لكنها قبل أن تبتلعها أزقّة المدينة التفتت نحوي. سواد ثيابها جعل وجهها يشعّ بياضاً وبالرغم من المسافة البعيدة نسبياً إلاّ أن شكل وملامح وجهها قد انطبع في عقلي.

رجعت البيت قبيل منتصف الليل فقد رآني أحد رفقاء الدراسة في الطريق ودعاني إلى تدخين النرجيلة في أحد المقاهي. رحّبت بالدعوة خاصة وأني كنت أودّ تغيير مزاجي الرتيب وكسر روتيني اليومي رغم

ان أحـداث ذلـك اليـوم لـم تكـن روتينيـة بالمرة. مشـيت علـى أطراف أصابعـي حـذر أن أوقـظ من في البيت خاصة أبي. ارتميت في سـريري مـن غيـر أن أشـعل النور من شـدّة التعب. اسـتلقيت علـى بطني وحين سعلت قليلاً شعرت بالغثيان بسبب تدخين النرجيلة. تقلّبت على ظهري وأطلقت زفرات حادة وكأنما أطرد الألم. لم أستطع النوم. كنت أرحّب بالكوابيـس التـي تأتـي معه لأنها كانت تسـلّيني. أهـرب من ألم إلى ألم وأختبىء من خوف إلى خوف. أذني أصبحت مرهفة تلتقط أدنى صوت. فـي الصيـف كنت أسـمع صوت الطبيعـة وتفاعل موجوداتها مع بعضها البعـض. صـوت صرصـار الليـل كان يضبط موسـيقي تلـك الأصوات. يتناوب نباح كلب غاضب من شـيء ما مع قطّة تموء من شـدّة الجوع. وأغـرب تلـك الأصـوات هي لذئب يأتي عواؤه فـي آخر الليل وبصورة متقطعة وخافتة، إذ ربما يكون في أعلى الجبال التي تحيط بالمدينة من جهة الغرب، رغم أنه لم يسبق لأحدهم أن شاهد ذئاباً في هذه المنطقة علـى حـد علمـي. لكن في تلك الليلة لم تكـن هنالك أصوات، فجميع الكائنات كانت تحتمي هاربة من برد الخريف. لم يكن غير صوت عقلي الصارخ في الأرجاء. جعلت أفكّر في لقائي مع الرجل، نسيت أن أسأله اسـمه، وهـل يمكننـي الوثوق به؟ وماذا آمـل أن أجد في القلعة؟ وحتى لـو افترضنـا أننـي عثرت علـى رفقائي هناك ماذا ترانـي فاعل؟ هل أبلغ السلطات التي ربما لها يد في احتجازهم؟ أم أسرّب الخبر إلى وسائل الإعلام وهيئات حقوق الإنسـان علّها تثير القضية ويتدخّل الرأي العام لعمل شيء؟

صحـوت عنـد الفجـر وأنا في كامل نشـاطي رغم أنني لم أنم أكثر

مـن سـاعة. خرجـت للمشـي على عكـس عادتي المتكاسـلة في الآونة الأخيـرة. خطـر لـي أن أمـرّ علـى صاحبي في الجريـدة لأرى إذا ما كان عرضـه قائمـاً. لكنـي غيّرت رأيي في اللحظة الأخيـرة لأنه كان يتوجب عليّ أن آخذ تاكسي ومن ثم لم أرد أن أتطفّل عليه من غير موعد مسبق. سأقوم بالاتصال به أولاً. لم أرغب كذلك في العودة إلى البيت. أكلت شطيرة وجلست في مقهى أقرأ الصحيفة وأشرب قهوة حتى موعدي مع الرجل. شدّ انتباهي خبر عن اختفاء بعض الفتيات. ثلاث كنّ في أعمار متقاربة بين السابعة عشر والعشرين، خرجن من بيتهنّ لأغراض متعددة، واحـدة كان ذاهبـة إلـى بيـت الجيران والأخرى إلـى الجامعة والثالثة لا يعـرف إلـى أيـن. لكنهن لم يعـدن. لم تكن هنالـك تفاصيل إضافية، لا أسـماء ولا صور ولا أي شـيء. ما الفائدة إذن من نشـر الخبر؟ آه، لقد نسيت، الفضيحة.

فاجأني في الطريق إلى موعدي تلبّد السماء بغيوم فحمية. لم أكن مطّلعـاً علـى تنبـؤات الطقـس، رغم أني كنت أقرأ الجريدة بشـكل شـبه يومي. خفت أن يهطل المطر وليس لديّ مظلّة تقيني، والمكان الذي أنا ذاهب إليه مكشـوف بالكامل. لفت نظري تزايد الشـحّاذين في المدينة. كانوا بمختلف الأعمار والأشكال. إمرأة عجوز تجر أسمالها تجلس عند بداية السوق وهي ترتّل منولوج الاستعطاف كأنه نشيد ديني. شاب تبدو عليه قوة الشـباب ونضارته لكنه يعاني من إعاقة عقلية يسـتجدي الناس وهو يضحك. طفل في حوالي العاشرة من عمره حافي القدمين ومغبر الوجه والشعر يدنو منك ويسرد عليك قصة حياته باختصار وبسرعة كي لا تفقد الاهتمام، يخبرك بأنه يتيم الأبوين وأنه لا يجد ما يأكله وإذا لم

تعطه شيئاً يذهب إلى شخص آخر وهذه المرة يدّعي موت أبيه ومرض أمه ويتلو عليه بحزن كيف أنه يعيل إخوانه الأصغر منه. تراهم يطوفون حول المكان كأنهم ممثلون في مسرحية لا معقولة أو أنهم من الزومبي الهائمين الباحثين عن عقول بشرية ليأكلوها. لوحة بائسة وضرورية في الوقت نفسه. يجب ملء دائرة الحياة العبثية بجميع المشاعر والحالات الإنسانية.

وصلت في الموعد المحدد مع تعب في العظام وحيرة في العقل. ظننت بداية أنه لم يحضر بعد، حتى رأيت سحابة دخان من السيجارة التي كان يدخنها، فقد جعله معطفه الرمادي مع محيطه وعمود الإنارة الذي يقف بجانبه شيئاً واحداً. نظر حوله ثم ألقى بالسيجارة وقال «في الموعد تماماً». ثم أضاف وهو يعرض عليّ سيجارة «يبدو أنك تحاول أن تقلع» هززت رأسي وأنا أنحني لتلقّي اللهيب. نظرنا سوية نحو القلعة في صمت. «نريد أن نثير القضية للرأي العام» قال بعد برهة. ثم أجاب عن سؤال لم أسأله أو كنت على وشك ذلك «لا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي. يجب أن نفعل شيئاً. كشف الموضوع إلى العلن من شأنه أن يثير اهتمام الخارج والذي سيشكّل ضغطاً على النظام». أخرج من معطفه الكبير آلة سوداء مربعة الشكل وسلّمني إياها. كانت الأسئلة ما تزال تختنق في حلقي ولا تخرج. «هذه آلة تصوير حديثة وذو تقنيات خاصة. نريدك أن تتسلّل إلى القلعة وتصوّر المعتقلين ويا حبذا أثناء تعذيبهم». نظرت إليه في صمت. لم أكن معترضاً ولكني شعرت بعبثيّة الأمر. أما هو فقال «ومن خواص هذه الآلة أنك بمجرد أن تصوّر فإن الصورة تنتقل مباشرة إلى جهاز حاسب آلي مربوط بها، وذلك تحسباً

لاعتقالـك». خبّـأت الكاميرا بينما انسـحب هو فـي بطء قائلاً «أتمنّى أن أراك ثانية. علينا ألاّ نطيل الوقوف هنا..».

لـم أدر إذا مـا كان علـيّ الذهـاب الآن أو الرجـوع فـي وقت آخر. لم يتسـنّ لي سـؤاله، فقد ولى مسـرعاً باتجاه المدينة واختفى فى أحد أزقّتهـا. نظـرت إلـى مقر حزب النظام القبيـح بجدرانه العالية ثم رفعت رأسـي وحدّقـت فـي القلعة التـي عليّ اقتحامها. أحسسـت آلة التصوير بأناملي ثم قررت الصعود.

فـي منتصـف الطريـق إلـى التجمّعات الصخرية التـي تفصل مبنى الحـزب عـن التلّـة التي تقع عليها القلعة، خرج من نفس الباب المخفي نفـس الفتـاة التـي رأيتهـا في المرة السـابقة وبدا أنهـا تتّجه نحوي. حين أصبحنـا وجهـا لوجـه توقّفـت هـي أمـا أنا فتابعـت مسـيري لأرى ماذا ستفعل. وإذ ذاك شعرت بيدها تشدني من ذراعي بقوّة. فاجأتني جرأتها. ابتسمت لها لكنها لم تبتسم. انتقلت عدوى المظهر الجدي إليّ فتصنّعت وجهـا متخشـباً. دخلـت الباب اللامرئي مرة أخـرى. في الردهة البيضاء كانت الإنارة شديدة. حين رأتني التفت حولي قالت «لا توجد كاميرات مراقبة هنا». مشت قليلاً ثم فتحت باباً آخر عن طريق بطاقة بلاستيكية. كان هنالك درج إسمنتي والمكان في الحجرة منخفض الإضاءة. الحيرة البادية على وجهي دفعتها إلى أن تعترف «أنا أعمل هنا.. لكنني جاسوسة أيضاً.. أسـاعد المعارضة». وقبل أن ندخل في الهاوية المظلمة أعلنت بنصف ابتسامة «إسمي سارة بالمناسبة».

«سارة!» ندّت عني الكلمة حين لفتنا الظلمة. أخرجت هي مصباحاً يدويـاً ووجّهتـه نحـو وجهها «ماذا، هل تعرفني؟» حين لم أجب أضافت

«أم أني أذكّرك بشـخص آخر». شـعرت بالحرج ولم أعرف ماذا أقول» لا، لا بأس. أنا آسف». نزلنا الدرج الإسمنتي في صمت حالك. يتطاير نحوي شـذا عطرها الياسـميني. كانت حاسرة الرأس تلبس بالطو نسائي غريب عن تلك المنطقة. لم أتبين وجهها جيداً في الظلام وحتى عندما كنا في الردهة المضيئة، لغرابة الأمر، لم تلتفت إليّ. لكنني أتذكّره جيداً من المرة السـابقة، جمال طبيعي غير صارخ، أظن أنه بالإمكان وصفها بالوسامة. ليست بذاك الجمال الذي يستقطب الانتباه، غير أني تذكرتها لسـبب ما. انتهت السـلالم إلى ممر تحت الأرض أشـبه بخندق سـري. أدارت مفتاحـاً علـى الجـدار وأضاء المكان مصابيـح صغيرة مثبّتة على السـقف المنخفض المسـتوى. ارتقت درجتين على الدرج وقالت كأنها تلقي عليّ خطبة «أعتقد أنك تعرف ما عليك فعله بعد هذا. عليّ الرجوع إليهـم كـي لا أثير الشـكوك». الإنـارة الخافتة أضاءت نصف وجهها مما زاد من غموض جمالها. أردت قول شـيء، أي شـيء. شـعرت بالحزن لسرعة انتهاء الأمر. هل وقعت بهذه السرعة؟ «شكراً لك.. أممم.. هل تعتقدين أننا سنلتقي ثانية؟» صعدت درجة أخرى قبل أن تقول «لا أرى داع لذلك» ثم ابتلعتها الظلمة.

تأكدت من وجود الكاميرا ثم تابعت طريقي. السـقف كان شـديد الانخفاض لدرجة أنني كنت أصطدم بالمصابيح المثبتة بأسلاك معدنية. فـي نهايـة الممـر كانت هنالك مجموعة أخرى من السـلالم الإسـفلتية. صعدتهـا بقلـب متوجس. كانت حجرة الدرج غير مضيئة وضيّقة بحيث كان ظهـري يحتـك بالجـدار. بـدا أنـني كنـت أصعـد بـرج عـال لأنني أستغرقت وقتاً طويلاً حتى وصلت نهايتها في ممر أفقي أصمّ هو الآخر،

كانت تنفذ إليه أشعة القمر من مكان مجهول. هل أنا في القلعة؟ أعتقد ذلـك، لا بـل أنـا في الجزء المقفل في وجه السياح والعامة. حيث كان هنالـك جـزء مخصص للذين يـودّون زيارة القلعة وأماكن مختارة فقط. لكـن القلعـة مقفلـة بأكملهـا الآن. لـم أعرف إلى أين أتجه. لم أسـتطع رؤية أية باب أو مدخل أو مخرج. كل ما أراه هو سكون رمادي ترقص فيـه ظـلال فضيـة. عاودتني آلام الظهر جـرّاء تعرّضي لحادث فظيع منذ عدة سـنوات خلت. توقّفت لألتقط أنفاسـي، اسـتندت إلى الجدار من جهـة اليميـن وإذا بـه يتحـرك وينفتـح كأنه باب. ولجت منـه وإذا أنا في عالم مختلف.

كان اللـون الأحمـر طاغيـاً في المكان. كانـت الأرضية والجدارن وحتى السـقف تغطيه سـجادة مخملية قانية. تسـاءلت بيني وبين نفسـي عـن فائـدة فرش الجدران والسـقف بسـجّاد. هل هـي علامة على الثراء والبذخ؟ وهل هذا مكان ملائم لحجز السجناء وتعذيبهم؟سمعت ضجة خلف أحد الأبواب الخشبية وإن كان لونه يظل أحمراً. فتحت الباب من غير أن أطرقه. وجدت إمرأة بها لمحة من الجمال شعرها الليلي مسرّح على شكل ذيل الحصان وتضع نظارات طبية كبيرة الحجم بشكل لافت. كانـت تجلـس خلـف مكتب منكبّة على ورقة تكتب. كان على المكتب ملف وحيد. عدا ذلك لم تكن الغرفة تحوي أي شيء آخر، إلا أن لونها لـم يكـن أحمـر بل أصفـر رملي. وقفـت لوقت طويـل أنتظرها. رفعت رأسـها وقالت في نبرة غاضبة «لماذا تأخرت؟!» شـعرت بأن وجهي قد تيبّس من شدّة الحيرة. أخذت تنظر إليّ وهي تلعب بالقلم في يدها. بعد أن يأست مني أضافت «خذ هذا الملف واتجه إلى آخر غرفة على جهة

اليسار. وأسرع فإنك متأخر كثيراً». عادت إلى أوراقها تكتب ومتجاهلة وجودي تماماً. لم أشأ تضييع المزيد من الوقت وسؤالها عن تفسير للأمر، فأخذت الملف وخرجت. في ذلك الطوفان الأحمر انتابتني آلام شديدة بعضها لم يكن عضوي. لماذا أصبحت أطيع كل ما يقال لي بسهولة وبدون اعتراض؟

وصلت إلى آخر الرواق ودخلت إلى الغرفة ناحية اليسار. هذه المرّة كان اللون الأبيض هو سيّد الموقف. وجدت فتاة جالسة في وسط الغرفة على الأرض تلبس عباء سوداء وتضع خماراً على رأسها بحيث لا يرى وجهها. كان يقف بجانبها رجل قصير وسمين بكرش كبيرة، كان يلبس جلباباً أسود قصير بالكاد يغطي ركبتيه ويضع عمامة وبلحية تصل إلى منتصف كرشه. كان يضع يده على رأس الفتاة ويتلو تعاويذ طلسمية. بعد أن انتهى من طقسه رفع يده وقامت الفتاة وخرجت من باب لم أره. نظر إليّ وابتسم بتصنّع. اقترب مني وأخذ الملف من دون أن يقول شيئاً. «أهلاً بك آدم، كيف حالك؟». «كيف عرفت اسمي؟» اتسعت ابتسامته أكثر، رغم زيفها، وأجاب «كل شيء عنك موجود في هذا الملف». رمى الملف على الأرض ثم قال «هل معك آلة التحول؟» عرفت ما يعني، أخرجت ما كان يفترض بها أن تكون آلة تصوير وأعطيته إيّاها بكل استسلام. لماذا لا أقاوم؟ لماذا لا أسأل عن الذي يحدث؟ وماذا عن المهمة التي كلّفت بها؟ ولكن هل ما زلت مقتنعاً أن رفاق الكفاح معتقلون في هذا المكان؟ ولماذا يقوم النظام بكل هذا وهو القادر على جلبي بسهولة؟ وما هذا التحوّل الذي عليّ القيام به؟

دهن الرجل صاحب الكرش/ اللحية، صدغي بمرهم ثم أخرج

سـلكين مـن الآلـة وألصقهمـا في المكان الذي دهـن عليه المرهم. أدار بعـض الأزرار علـى الجهـاز أحسسـت علـى أثرهـا أن عظامـي كلها قد انتزعت من جسدي، ثم غبت عن الوعي.

(3)

صحـوت فـي بركـة من الدمـاء، دمائي. لكن لم يكـن هنالك ألم. جسدي كان متصلباً كالحجر. أعلى ذراعاي كانا ملتصقين بإبطي بصورة غريبة. تحسّست ظهري. الجناحان لا يزالان هناك، كذلك التشقّقات. لم أستطع الانتصاب. كان عليّ الإنحناء كما أن رجلاي كانتا متقوستين إلى الأمام. تذكرت أن عليّ العثور على الحشرة الأعظم حين رأيت المزمار الذهبي والورقة والكتاب. التقطت كل ذلك وتابعت سيري إلى الأمام.

أصبحت أمشي بسهولة أكثر. تعوّدت على وضعي اللاطبيعي. في نهايـة الممـر نزلـت درجاً ووصلـت إلى قاعة هائلة يتقاطـع فيها الضوء مع الظلام. لم أعلم إلى أين أتجه، لذا مشـيت إلى عمق القاعة. وقفت فـي بقعـة مضيئـة يلفني الظلام من كل جانب. أحسسـت بحركة أمامي. شيء دائري يزحف على الأرض. «أهلاً بك. يسعدني أنك تمكنت من الوصول» أتاني صوت مألوف. عندما تحرّك الشـيء نحو الضوء رأيت أنهـا الـدودة التي سـاعدتني سـابقاً. «مـاذا تفعلين هنا؟» وجدت نفسـي أسـأل. اقتربـت منـي، أكثر لونها الوردي فقـد بريقه، أصبح الآن رمادي باهـت «لقـد أخبرتـك أن لـديّ وظيفة أخرى، ألا تذكر ذلـك؟» «اتبعني الآن». سرت خلفها في الظلام بعد أن اختفى الضوء.

دخلنـا ردهـة حجريـة كأنها سـجن من زمن سـحيق. كانت تضيء

المكان نيران أشعلت في جذوع خشبية. بدت طويلة بلا نهاية لكن الدودة لم تلق لذلك بالاً وحثّت في زحفها. كانت تكثر على جانبي الرواق نوافذ مربعة صغيرة تتصالب في فتحاتها عمودان من الخشب. كلّما مررت بإحدى النوافذ كنت أمعن النظر في داخلها، لكني لا أظفر بأي شيء. كل ما كنت أراه هو ظلمة مقيمة. قبل أن أسأل الدودة عن طبيعة المكان بادرت هي بالقول «عليّ أن أخبرك بحقيقة ما سيحدث لك». ثم أضافت من غير أن تقلّل من سرعة زحفها «سيكون عليك المرور بثلاثة أبواب. في كل باب سيلقى عليك بسؤال وإجابتك هي التي ستمنحك حق العبور» نظرت إليها في حيرة. وكأنها أحست بحيرتي قالت «الكتاب الذي تحمله سيكون عون لك في ذلك».

عند باب مزخرف بأحجار ملوّنة متطابقة في الشكل والحجم توقّفنا عن المسير. رُسم أعلى الباب ما يشبه قطيع من الخراف يقوده ذئب نحو هاوية ما. من بين أستار مظلمة أطل علينا قرنان من الشعر تبعهما ثعبان طويل له العديد من الأرجل الصغيرة عليه درع أخضر اللون على طول جسمه. تبيّن لي بعد برهة أن ذلك لم يكن ثعباناً بل حشرة ما يسمى بأم أربع وأربعين. خاطبتني بصوت أشبه بالغرغرة لكني فهمتها «أيهما أسبق، النفس أم الفكرة عن النفس؟».

كان جلياً أن ذلك هو السؤال الذي عليّ أن أجيب عنه. لكن طبيعة السؤال غريبة. ما الغرض من سؤال كهذا؟ هل هو سؤال تعجيزي؟ وكيف لي أن أعرف أي شيء عن النفس؟ التفت نحو مرافقتي الدودة طلباً للمساعدة. «أنت تعرف الإجابة مسبقاً. في الكتاب ما يساعدك على التذكّر» كان ذلك كل ما قالته لي. جعلت أقلّب صفحات من غير

هـدى. توقفـت يـدي عـن التقليب عنـد صفحة بها رسـمتين كانتا عبارة عـن دائرتيـن. الدائـرة الأولى كانت بها نقاط دائرية صغيرة كأنها رؤوس بشـرية، والدائـرة الثانيـة كانـت بهـا نقطة واحـدة في منتصفهـا. «النفس فـي مفهومهـا الدلالـي موازيـة للوعي، إذ لا نفس بـدون وعي» وجدت نفسـي أقـول كأن أحدهـم كان يلقّننـي. تابعـت الـكلام «النفس بشـقّيها الفزيولوجي والميتافيزيقي تتكوّن من أفكار. والشّـق الثاني، أي النفس المجازية، هي الجوهر هنا. ولأن مكوّنها الأساسي هي الأفكار والوعي بالتجارب الشـخصية والاسـتجابة والتفاعل لمجموع العوامل النفسـية الدائـرة حولهـا، أرى أن الفكـرة عـن النفس هي السـابقة لأننا لا نتعرف عن النفس، كلمة ومعنى، إلاّ من خلال التفكير فيها والتأمّل في أبعادها، ولأن الوعي لا يقوم إلا بالأفكار، فلا نفس إلاّ من خلال فكرة النفس».

دهشـت أنـا نفسـي مـن إجابتـي تلك، لكـن الـدودة ذات الأرجل العديـدة التـي أفسـحت لـي المجال بالعبور، لم تندهـش ولم تعلّق بأي شـيء. ولجت من خلال باب هلامي نحو ظلمة أخرى ومعي مرافقتي الدائمة دودة الأرض.

في ممر آخر تغيّر الوضع كلياً. كنا نمشـي، أنا أمشـي هي تزحف، على أرض مفروشـة بسـجاد والجدران والسـقف مطعّمة بصفائح ذهبية والضوء يشـعّ من مكان مجهول. الزخارف التي ملأت أعالي الجدران كانـت كأنهـا حـروف لغـة قديمة لكن لا أعرف مـا هي. وصلنا إلى باب عملاق عليه نفس زخارف الجدران والحروف الطلسـمية، كما كان في وسـطه ما يشـبه الحجارة الكريمة وتعلوه نافذة زجاجية ملوّنة على نمط زجاج المعابد الدينية. سـمعت صوت نقر على الأرض وإذا بها عقرب

سوداء كبيرة الحجم تسدّ علينا الباب. شعرت بالخوف أولاً، لكن بعدما هدأت حركتها وسكنت أطرافها انزاح الخوف وحلّ محلّه الاستغراب منتظراً السؤال كي يلقى عليّ والذي لم تتأخّر العقرب في طرحه بصوت كأنه صفير «هل الخير والشر ذاتيان أم عرضيان؟».

عرفت ما يجب القيام به. فتحت الكتاب مرة ثانية وجعلت أبحث عن شرارة الإجابة. كان هذا السؤال أقرب إليّ، بل يبدو أن الجميع يمكنهم الإجابة عنه. فمنذ الصغر تأتينا الأصوات من كل ناحية وصوب تخبرنا أو تأمرنا بالأحرى عما يجب القيام به وتنهانا عن الأعمال التي يجب أن ننتهي عنها. أوامر ونواهي، في البيت، في المدرسة، في المعابد، في الشارع، في مقار الأعمال. قوانين وأنظمة وعادات وتقاليد وواجبات وفرائض شكّلتنا وصنعت شخصياتنا وكونت عقولنا، حتى اختفت فردياتنا في الجماعة.عند صفحة بها رسومات لنجوم مختلفة الأشكال وأقمار وكواكب، أمعنت النظر.

«لا شيء شرير في ذاته كما أن لا شيء خير لذاته. كمخلوقات متعلمة وعاقلة فإن ما نعتبره خيراً أو شراً نلتقطه أثناء طريقنا في الحياة. مشاعر الخير من قبيل الشفقة والتعاطف والحب نابعة بشكل جوهري من غريزة البقاء لدينا، فالأعمال التي نصنّفها على أنها خيّرة تأتي لكي توائم حاجتنا في العيش بسلام. وكذا هي الأفعال الشريرة، فما هي إلا محاولة لترويض غرائز الإنسان وكبح جماح خياله الواسع الجشع. والأديان استفادت من الخبرة البشرية المتراكمة، فهي لم تأت بجديد ولذا فهي ليست بمقياس لما هو صالح أو طالح. ولأن بعض الأعمال التي نطلق عليها صفة الشر، كالقتل والتدمير، تصبح مقبولة، إلى حد ما،

في وضع الدفاع عن النفس أو في الحروب، فهذا يدل على أن الأعمال الشريرة والخيرة إنما عرضية. هذا من ناحية التأسيس الدلالي، لأننا نرى سعي العقلاء من البشر لإيجاد منظومة أخلاقية عالمية يراد بها الحد من الشرور وإلى ما يؤدي إلى الشرور».

انزاح الجسم الأسود الكبير للعقرب وعبرنا الباب. في ممر كأنه قوس قزح مشينا. كنت مشدوهاً بكثرة الألوان الغير متناسقة من حولي، كما كثرت كذلك زخارف بدت رخيصة الصنع وبلا تكوين فني جميل. «ستعبر هذا الباب وحيداً» أعلنت الدودة فجأة. أخذت في تأمل مرافقتي العجيبة. جسمها لم يكن أكثر من تجعدات بيضاء مائلة إلى اللون الزهري من الجلد ونقطتين غارتين في المقدمة تمثّلان العينين وبعض الشعيرات المتفرقة. ترى أي من البشر كانت قبل التحوّل وكيف كانت حياتها؟ «بعد أن تجتاز هذا الباب ستقابل الحشرة الأعظم!» لأول مرة استشعر نبرة حزن في صوتها. كنت أريد أن أسألها عن مسألة التحوّل هذه وما الغرض منها ولماذا تبدو الحياة ميتة خارج الجدران. لكني لسبب ما لم أستطع. «لا تقلق عما يجب القيام به، سيتم إعلامك بكل شيء». توقفنا عند باب قصديري لا شكل له مكتوب على جانبيه بعض الشعارات المستهلكة وأعلاه رسمت صورة طبل. سمعت صوت رفيف أجنحة خفيف حطت بعد ذلك جرادة كبيرة من مكان مجهول. لم أنتبه قبل ذلك إلى أن جلدي قد تحوّل إلى ما يشبه الصدف قاس الملمس. رافقنا الصمت لبعض الوقت إلى أن طرحت الجرادة سؤالها بصوت يشبه حفيف أوراق الأشجار في يوم خريفي عاصف «هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة؟».

بحثت عن الكتاب فلم أجده، لابد أنه وقع مني. عرفت عندئذ أنني لا أحتاج إليه للإجابة عن هذا السؤال. إنه كسابقه، كان قد عرض على أرواحنا من قبل أن تشـكّلنا الطبيعة. رغم أني لا أعتقد بالخوارق. لكن الطبيعة في أجل تألقها تسمو إلى مستوى عال من الروحانية. إنه تماس حميمي مع مشـاعرنا. «الأخلاق قبل أن تكون سـلوكيات ومواقف، هي أفكار ومبادئ تتشكل في عقولنا. ومصدرها أطراف عدة أهمها الوسط المجتمعـي والثقافـي. تطبيقهـا تفرضه ظـروف معيّنة من بينها الرغبة في القبول والانتماء. قد تبدو بعض السـلوكيات الأخلاقية ثابتة، كمسـاعدة الغير والرأفة بالمساكين، لكنها تخضع إلى الإجماع المجتمعي والاتفاق الضمنـي مـن ناحية التجمعات الثقافية الموحدة. وهي تخضع أيضاً إلى المنطلقات الفردية التي قد لا تتماشـى مع التيارات الأخلاقية السـائدة، ومن هنا ينشـأ التمرد والنشـوز. والتقدم الحضاري والتطورات الثقافية قـد يلغيـان بعض الأخلاقيات أو يسـتحدثان أخـرى. مثال على ذلك أن فعل القتل مرفوض بصورته المبدئية والافتراضية، لكنه يحدث تغيّراً في الوضع الثقافي والسياسي كظهور دين جديد يتّخذ من القتل عقاباً لبعض الإختلافـات والتصرفـات الخلقيـة. مـن هذا المنطلـق أرى أن الأخلاق متغيّرة وليست ثابتة.

(4)

دخلـت وحيـداً إلـى أكبر قاعة رأيتها في حياتي. الأرضية مصنوعة من نوع من الرخام له ملمس ولون رمال الصحراء. في نهاية القاعة من كل طرف كانت توجد سـلالم لها شـكل الحجارة لكنها لامعة كالذهب

كانـت تـؤدي علـى مـا يبدو إلى طوابق عليا بهـا قاعات أخرى قد تكون بحجم هذه القاعة وغرف عديدة. بالإضافة إلى ذلك كان يحرس المكان جيش هائل من الأعمدة ضخمة الحجم عليها رسـوم جميلة لأناس في وضعيـات مختلفـة وحيوانـات وبعـض الرموز الغريبة مـن بينها مثلثات وأهرام ورسـوم لعيون كأنها تحكي قصص وحكايات وتوثق حضارات وثقافات. تابعت مسيري في خط مستقيم. ومع كل خطوة أخطوها أشعر أنني أقترب من الأرض أكثر. ترى كيف أصبح شكلي الآن؟ بالنظر إلى ساقاي وذراعاي يبدو أنني لم يعد جسمي بشرياً.

تـراءت لـي سـحب من الدخان في آخـر القاعة وأتتني معها رائحة زكيـة، كأننـي كنـت فـي حقـل من الزهـور. لا أدري لمـاذا تذكّرت آخر جلسـة اسـتجواب لـي عندمـا كنـت محتجزاً بسـبب نشـاطي السياسـي المعـارض. كانـت غرفـة صغيـرة رمادية جرداء وأنا جالس على كرسـي معدنـي مزعـج وغيـر مريـح وكانت يداي خلف ظهـري مقيّدتين. كنت أظل جالساً ما يقارب الساعتين أو الثلاث إلى أن يأتيني المحقق. وهذا عندما يأتي فإنه لا يبدأ في التحقيق مباشرة، بل يجلس ويدخّن سيجارة ويشـرب شـاياً أو يقرأ جريدة إلى أن تمضي سـاعة أخرى. في التحقيق الأخير اختلفت نوعية الأسئلة. وابتعدت عن موضوع التنظيم السياسي والنشـاط المعارض. تم سـؤالي عن مواضيع فكرية وثقافة وحتى دينية. اختفـت هـذه المـرة النبرة الاسـتعلائية وجرى الاسـتجواب كحوار الند للنـد. مـع هـذا فإن شـكوكي وظنوني لم تبارحنـي، إذ لزمت الحذر من ألاعيب النظام الذي يودّ إمساك شيء عليّ. لا زال ماثلاً في عقلي آخر سـؤال طُرح عليّ في تلك الجلسـة إذ أراد المحقق أن يعرف رأيي في

كيفيـة إصـلاح المجتمع وتخليصه مـن الخرافات والعادات البالية حتى يرتقي حضارياً. استغربت هذا السؤال بالذات، لأن من صالح أي نظام متسـلّط أن يظل شـعبه واقعاً تحت سـلطة غيبية ما حتى يسـهّل التحكّم بـه. «التعليـم» نطقـت تلك الكلمة بعـد صمت طويل. بعد صمت أطول تابعـت «التعليـم الجيـد هو أولى الخطوات لإيجاد مسـتوى عقلي رفيع عند العامة. ويجب الإنفاق السخي على التعليم وتحسينه وعلى العلوم الطبيعية التي تنفع الناس وليست العلوم الغيبية. يجب التشجيع كذلك على التفكير النقدي الحر والتشجيع على الإبداع والابتكار وتوفير مناخ صحي للحرية». كان لدي الكثير لأقوله لكن التعب الذي بروحي منعني. قبل أن يخرج المحقّق من الغرفة قال «بإمكانك الكتابة عن ذلك والدعوة له، لكن إبقى بعيداً عن النظام ورموزه وعن انتقاده».

من خلف السحب الدخانية سمعت صوت أشبه بالصفير وصرصرة كثيرة ومختلفة المستويات. اخترقها وأنا أرتجف، لا عن برد أو خوف، وإنما بسبب التحولات الفيسيولجية داخل جسمي. لقد شعرت وكأنني افقـد الوعـي شـيئا فشـيئا. خَـدَرٌ أصاب جميع أجزاء جسـدي. كنت في حالـة سـرنمية كتلـك التـي تنتابنا عندما نصحو من نـوم عميق. "تعال لا تخشـى. أنـا الحشـرة الأعظم. سأسـاعدك فـي تحولـك". كان الصوت ينبع من الداخل، كأن عقلي يتحدث إلي. "يجب أولا أن تسـتثير الطاقة عن طريق الموسـيقى، ثم سـلمها زمام الأمور". علمت أنه علي العزف على الناي. سـرت في أوصالي تيارات باردة وأنا أعزف لحنا جميلا لا أدري كيف اهتديت إلى اتقانه، أنا الذي لم يسبق لي العزف على أية آلة موسـيقية في حياتي. اصبحت أطفو قليلا من دون الاسـتعانة بجناحي.

صارت الرؤية ضبابية إذ امتلء المكان بدخان ابيض كثيف. "ما هي الحشرة التي قررت التحول إليها؟" اتاني السؤال وأنا أغوص عميقا في السديم الابيض. "خنفساء". "اقرأ إذا". اخرجت اللفافة بين من بين لحم فخذي، حيث امتزجت بي أثناء التحول. لم أشعر بأي ألم. لم تخطر على عقلي أية فكرة. لم تكن في رأسي أية ذكريات ولا في قلبي أية هموم. تحولت روحي صفحة بيضاء تنتظر القدر كي يرسم عليها لوحته الساخرة. شعرت أنني رجعت إلى المادة الأولى قبل تشكل الكون. أخف من أخف شيء لكنه أثقل من كل شيء. عرفت الحقيقة. رأيت كل ما يمكن رؤيته. قرأت "هي حركة لا تنتهي. انتقال لا قرار له، من أقل العناصر اضطرابا إلى التكوين البشري العبثي وأفعاله العاجزة".